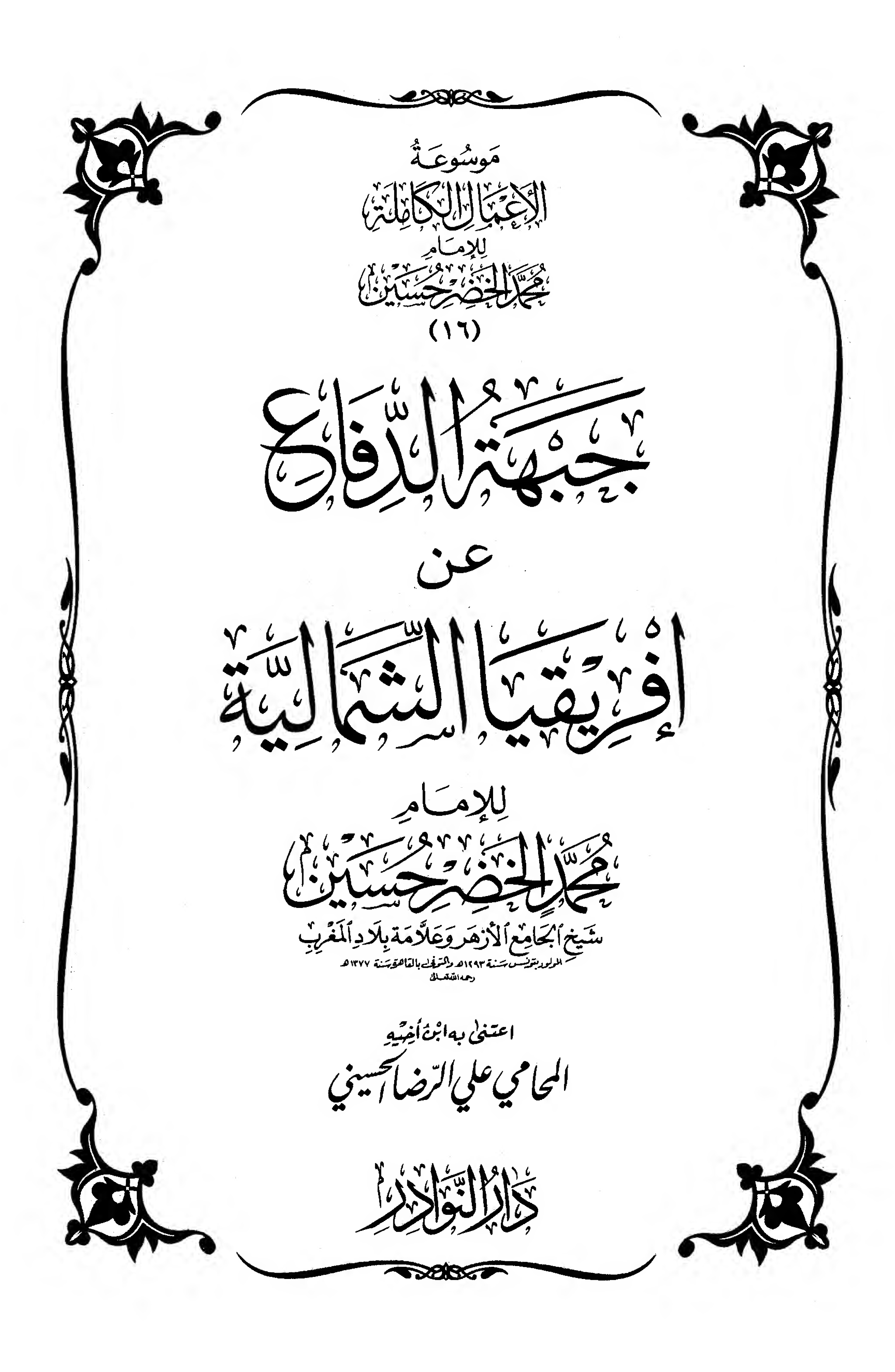


موسوعة
الأعمال الكاملة
للإمام
محمد الخضر حسين
(١٦)

جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية

للإمام
محمد الخضر حسين
شيخ الجامع الأزهر وعلامة بلاد المغرب
المولود بتونس سنة ١٢٩٣هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ١٣٧٧هـ
رحمه الله تعالى

اعتنى به ابن أخيه
المحامي علي الرضا الحسيني

دار النوادر



الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ردمك : ٥ - ٦٦ - ٤١٨ - ٩٩٣٣ - ٩٧٨ : ISBN
9789933418665

سورية - لبنان - الكويت

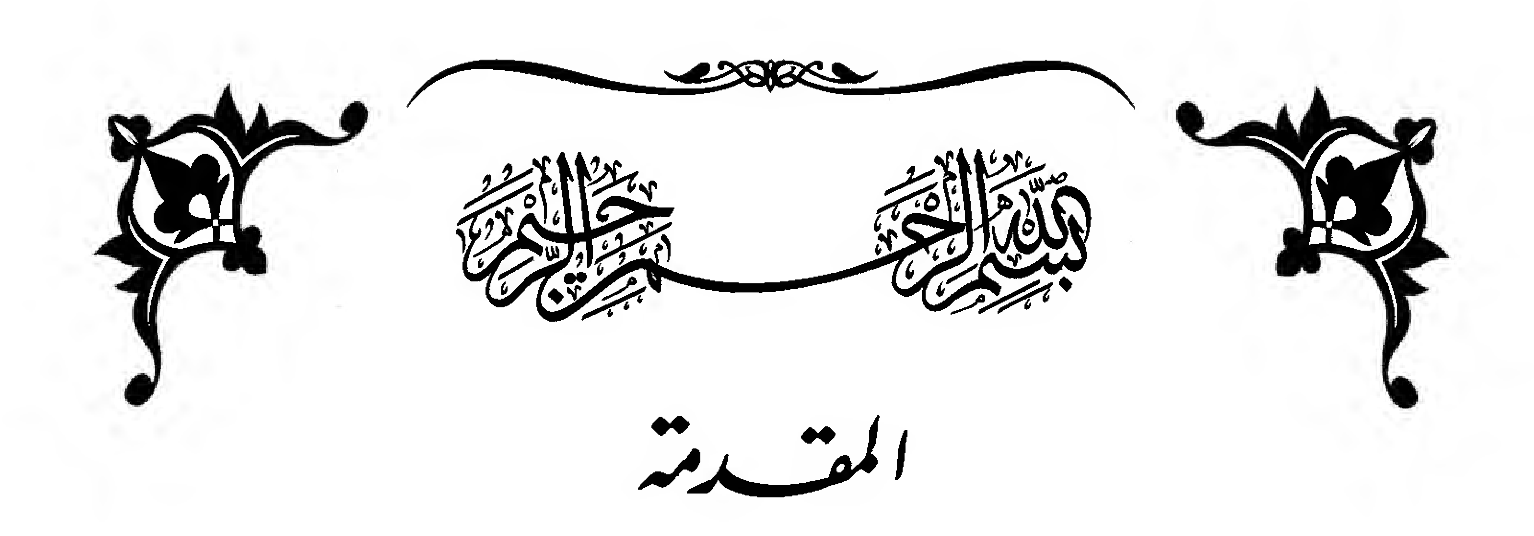
مؤسسة دار النوادر م.ف - سورية * شركة دار النوادر اللبنانية ش.م.م - لبنان * شركة دار النوادر الكويتية - ذ.م.م - الكويت

سورية - دمشق - ص. ب: ٣٤٣٠٦ - هاتف: ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس: ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)

لبنان - بيروت - ص. ب: ٥١٨٠/١٤ - هاتف: ٦٥٢٥٢٨ - فاكس: ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)

الكويت - حولي - ص. ب: ٣٢٠٤٦ - هاتف: ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس: ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

أسسها سنة: ٢٠٠٦م
نور الدين طالب
المدير العام والرئيس التنفيذي



المقدمة

من أجل التوثيق السليم لتاريخ تونس في العصر الحديث، ونظراً إلى أن تأريخ الحركة الوطنية الاستقلالية ـ سواء داخل التراب التونسي، أو خارجه ـ بحاجة إلى قلم حر منصف، يكتب بصدق طوية، ويؤرخ بنزاهة، ودون ميل إلى أهواء وأغراض.

أقدم هذا الكتاب إلى المؤرخ والباحث كوثيقة من وثائق التاريخ التونسي، لعله يجد فيها واقعة، أو خبراً، أو حتى كلمة يستخلص منها الحقيقة التي نريدها مسطرة في سجل البلد الذي أحببناه، وأردناه أن يكون في طليعة الدول التي تتطلع إلى مستقبل مشرق بقدر ما تعتز وتفاخر بماضٍ مشرق.

إن حصر الجهاد التونسي في زعيم، ونسيان أولئك الأبطال والشهداء والعاملين في الساحة الوطنية، أو وضعهم وتصنيفهم في مراتب ثانية أو ثالثة من مراتب الجهاد، إنه طعن في صدر الأمة، وامتهان لكرامتها وشرفها، ومن الواجب علينا أن نصحح مسيرة الخطأ، ونعطي كلَّ واحد من المخلصين مكانته في التاريخ دون تزييف.

أقدم ـ في سبيل هذه الدعوة الصادقة ـ كتاب: «جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية» التي أسسها وقام على تحقيق مبادئها في تحرير المغرب الإمام محمد

الخضر حسين في القاهرة، ولا أقول: إنها الحركة الوحيدة العاملة في ميدان الجهاد المغربي، أو إنها المنفردة بانتزاع الاستقلال من براثن الفرنسيين، بل نسجل بكل تواضع أنها عمل مجيد صنعه رجال أمجاد، فاستحقوا من الوطن كل تعظيم وإعزاز.

ومن المفيد للتاريخ التونسي وكاتبيه ومؤرخيه ومصنِّفيه ومنصفيه أن أعرض في هذا الكتاب لمحات عن جهاد الإمام محمد الخضر حسين، ودوره الكبير في الحركة الاستقلالية التونسية والمغاربية والإسلامية. وأقول:

من أبرز وأهم ما يتصف به الإمام محمد الخضر حسين في حياته المباركة: تعدد المواهب والخصائص التي أكرمه الله بها، وهي ميزات جليلة يضعها الله في بعض عباده الصالحين المخلصين؛ ليكونوا القدوة في كل موهبة تساموا بها إلى أعلى الدرجات علماً وعملاً، وليكونوا مثالاً في عصرهم يحتذى بهم ـ فيما بعد ـ من الأجيال التي تحمل رسالة الإسلام، الرسالة التي ستبقى منار العلم إلى يوم الدين. . . .

فإذا قيل: إنه داعية إسلامية مصلح، وإذا قيل: إنه فقيه عليم، وإذا قيل: إنه مفسر محدّث حافظ، وإذا قيل: إنه شاعر كاتب ناقد، وإذا قيل: إنه لم يسلك إلا طريق الجهاد في الإسلام، وإذا قيل: إنه جمع في فكره النيّر كل المعاني السامية في الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وضم بين أصابعه قلماً عبقرياً يجول في كل ميدان خدمة للإسلام.

كل هذه الأقوال الصادقة نجدها في صحف الإمام وسيرته ـ رضوان الله عليه ـ.

في هذه المقدمة لكتاب «جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية ـ صفحات

من جهاد الإمام محمد الخضر حسين» الذي نخصه للوثائق التي ارتبطت بأعمال الجبهة ونشاطها، والتي نشرت في مجلة «الهداية الإسلامية» على صفحات أجزاء متعددة، رأينا أن في جمعها خدمة للتاريخ ـ ولتاريخ المغرب العربي خاصة ـ، ومن الوفاء للإمام أن نستعرض بإيجاز واختصار مشاهد ناطقة من جهاده الإسلامي الذي لم يفتر لحظة، على أمل العودة إلى دراسة مستفيضة لصفحات جهاده ـ إن شاء الله ـ في كتاب مستقل لنا أو لغيرنا من الكتّاب الإسلاميين.

نستعرض في هذا الكتاب بإيجاز يفي بالغرض:

- الحرية في الإسلام ـ أول دعوة ومحاضرة نهض بها الإمام في تونس.
- في معتقل جمال السفاح في دمشق.
- جهاد الإمام في برلين.
- جمعية تعاون جاليات أفريقية الشمالية.
- جبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية.
- الإمام محمد الخضر حسين والرئيس الحبيب بورقيبة.
- وثائق جبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية.
- تصريحاته في مشيخة الأزهر بتأييد قضايا المغرب العربي وتنديده بالاستعمار.

ومن أجل التوثيق لتاريخ المغرب، وحفظاً لتلك الأعمال المجيدة التي قامت بها الجبهة برئاسة الإمام محمد الخضر حسين، والتي تعتبر بمجموعها وثائق هامة وجب علينا ضبطها وتبيانها للمؤرخ والباحث والإنسان العربي

والمسلم. فجمعنا تلك الوثائق في هذا الكتاب. آملين أن نكون قد ساهمنا بهذا الجهد المتواضع في خدمة حركة الجهاد المغربي الإسلامي. والحمد لله على خدمة الإسلام، والحمد لله على نعمة الإسلام.

علي الرّضا الحسيني





الحرية في الإسلام

منذ أن سلك ـ رضوان الله عليه ـ طريق الرشاد، وقد راقبت عيناه الجنود الأغراب في تونس، يجوسون خلال الديار، ويعتدون على الأعراض والأموال والأرواح، وينشرون المهانة والمذلة. منذ الخطوة الأولى التي ضربها على الطريق، وفي ذلك الجو المرعب المخيف الذي كان مخيماً على المدن التونسية، وعلى المغرب العربي من حولها، والاستعمار الفرنسي القبيح بوحشيته الكاسرة وجرائمه البشعة التي تهز كل فؤاد هلعاً وخوفاً. نجد الإمام ينظر إلى تلك الأمة المنكوبة في دينها وحريتها وكرامتها، ويرى فيها السكون والركود، فيدعوه إيمانه القوي المتين إلى أن يخوض ساحة المقاومة والمجابهة من أول أبوابها. وهو باب تهيئة النفوس للثورة على الظلم، وشحنها بمهيئات الانتفاضة والتمرد على الطغيان بوجهيه الممثل بالاستعمار الفرنسي البغيض، والخونة من عبيد الحكم الذين مهدوا الطريق له، وأعانوه على شروره وآثامه، ودافعوا عن مصالحهم ومآربهم الخبيثة من خلال تثبيت رأسه وقدمه في البلاد، وكانوا أعوانه وأعضاده، وفي بعض الأحيان المدافعين عن وجوده وبقاء احتلاله المقيت، وكانوا بيده سوطاً على العباد.

من يجرؤ أن يقول كلمة حق في وجه مستعمر جائر؟!

من يستطيع أن يهمس ـ حتى إلى نفسه ـ بكلمات الحرية والعدالة الاجتماعية والجهاد؟!

ويتقدم الإمام المؤمن الصادق الصابر بخطا ثابتة وسط هذا الشعب الصامد الذي كاد أن يتمزق غيظاً، وفي أعماقه بركان مقفل عليه بالإرهاب.

ويعتلي منبر الخطابة ليفجر قنبلة طالما أقضّت مضاجع الحكام الطغاة، وهزت عروش الممالك القائمة على الجماجم والأشلاء... وهي (الحرية).

والحديث عن الحرية في دولة الاستعباد والاستبداد لا يسر المستعمر، ولا يرتاح إليه الطاغوت، ولا يقبل به نظام القمع والتعذيب، ومن أين لفرنسا المستعمرة أن تقبل مثل هذا الحديث؟.

وعندما يخاطر المرء بحياته في ذلك الجو المكفهر، ويزاحم الصفوف لينادي على الأشهاد بكلمات تطرق أسماعهم، وتأخذ بألبابهم، فتطرب لها القلوب، وتعلو بها الهمم، ويقوى بها الضعيف، وتنزل كالصواعق على أعداء الحرية.

لا نقول: إلا أنه رجل شجاع كبير، لم يرض الامتهان، ورفض قيود العبودية، وخاض مخاضاً صعباً لا يقدر عليه إلا من آمن بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وابتغى ما عند الله من بشرى وثواب.

كم هي مضيئة مشرقة تلك الليلة المشهودة في تاريخ تونس ومطلع كفاحها من مساء يوم السبت ١٧ ربيع الثاني ١٣٢٤هـ، وقد انتظمت جموع الناس الظامئة إلى العدالة والحق في نادي «جمعية قدماء تلامذة الصادقية» في مدينة تونس؛ لينصتوا إلى عالم جليل[١]، يطرح على الجماهير (حقيقة الحرية... الشورى... المساواة... الحرية في الأموال... الحرية في

---

(١) كان الإمام محمد الخضر حسين في يوم المحاضرة مدرساً بجامع الزيتونة الأعظم، ومدرساً بالمدرسة الصادقية.

الأعراض... الحرية في الدماء... الحرية في الدين... الحرية في خطاب الأمراء... آثار الاستبداد).

هذه العناوين الثائرة التي تضمنتها المحاضرة، وفي كل عنوان منها صفعة مؤلمة على رقاب المستعمر وأعوانه. ثم ما تبع المحاضرة من آثار عميقة وبعيدة في ضمائر الأمة، وتداول هذه الألفاظ في المسامرات والنوادي وعلى كل لسان، ثم بعد أن طبعت انتشرت بين الناس، «وأضاءت على الأمة شموس الحرية، وضربت أشعتها في كل واد»[1].

ومن المفيد أن نذكر في سياق المقدمة: أن بعض الحاضرين كانوا من الفرنسيين، الذين استمعوا إلى المحاضر. وقام الإمام محمد الطاهر بن عاشور مخاطباً المحاضر بقوله: «يا أيها الأستاذ النحرير؛ ويا أيها السادة! يسرني أن أقف موقفي هذا؛ لأمثل على مرأى من السادة الحاضرين مقدار الابتهاج والسرور بمسامرتكم الفائقة التي سمح لنا بها هذا النادي أو السامر الشريف، فسمعنا منه فلسفة حقيقية لمبدأ عظيم من مبادئ شريعتنا الإسلامية، وشاهدنا مثالاً صحيحاً للفصاحة والبلاغة العربيتين... إلخ».

عالِم زيتوني شابّ، هادئ الطبع، حسن السمت، ينطق همساً، وثائر في فكره وقلبه، وبركان في صدره، يتحدث عن الحرية في بلد يسوده الظلام

---

(١) طبعت مسامرة «الحرية في الإسلام» للمرة الأولى سنة (١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م) بالمطبعة التونسية - نهج سوق البلاط عدد ٥٧ بتونس، وطبعت عدة مرات في البلدان العربية. ومنها طبعة ضمن كتاب «محاضرات إسلامية» للإمام.

وتحتاج هذه الرسالة إلى بحث عميق ومستقل في ألفاظها ومعانيها وآثارها في الحركة الوطنية التونسية.

الدامس، ويطمسه سواد الاحتلال، ويغمز من قناة المستعمر وأخيه الحاكم العبد الذليل، إنه أمر جلل، وخطب كبير، ومشهد لا يطيقه الكابوس الجاثم على صدر الأمة[1].

لذا نجد أن الإمام محمد الخضر حسين ـ بعد هذه المحاضرة ـ أصبح مطلوباً من السلطة، ومراقباً من عيون الاستعمار الفرنسي الذي أعلن عليه حرباً تمثلت في عدد من الإجراءات الإدارية.

لم تكن فرنسا المحتلة عاجزة عن القبض عليه، ولم تكن يدها قصيرة عن اغتياله على غفلة، أو إعدامه كما فعلت بالآلاف من الناس، ولأسباب تفتعلها.

والرأي عندي أن كلاً من حكومة الاستعمار وحكومة العبيد، لم تلجأ إلى هذا الأسلوب؛ للمكانة العلمية الباهرة التي كانت تحيط بالإمام في أعين طلابه ومحبيه ومعارفه، وللمركز المرموق الذي كان يتمتع به بين علماء الزيتونة. وإن المستعمر الفرنسي والحاكم الذليل كانا حريصين على عدم المساس بالشعور الديني؛ لأن أية محاولة من هذا القبيل تشعل نار أحداث دامية هما في غنى عنها.

إذن لا بدّ أن تكون المجابهة مع الإمام المجاهد في الخفاء، وعلى مراحل يمكن تلخيصها وإيجازها بالحؤول دون وصوله إلى الطبقة الأولى من المدرسين في جامع الزيتونة، رغم كفاءته العلمية التي شهد بها شيوخه

---

(١) يقول الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ محب الدين الخطيب عن محاضرة «الحرية في الإسلام»: دلت على نزعته المبكرة إلى الحرية، وفهمه السليم لرسالة الإسلام من هذه الناحية.

والعلماء المنصفون. إلا أن بعض الذين انتدبوا لامتحانه، وبتوجيه من السلطة، منعوا قبوله في عداد الطبقة الأولى(١).

وأقوى سلاح يشهر في وجه العالم: أن يضيق به ميدان العلم، ويضرب الجهلة من حوله القيود والسدود، ولا يجد سبيلاً للانطلاق في الحياة العلمية إلى أقصى غاية.. وهذا من أهم الأسباب والدوافع التي شجعته للهجرة إلى دمشق، والعمل في البحث العلمي والقضية الإسلامية بقدر ما يستطيع، والرحيل من مضايقات الاستعمار الفرنسي، والانتقال إلى أرض تتمتع بحرية أكثر، واستعباد أقل.

ولتكون دمشق مرحلة من مراحل العمر يتطلع منها إلى ميدان فسيح، وأفق رحيب لم يجدهما في تونس التي ضاقت بعلمه ومعارفه.

---

(١) سمعت من العلامة الفاضل الشيخ محمد الشاذلي النيفر هذه الواقعة، وأسجلها هنا كما سمعتها منه حرفياً للتاريخ: عُرض اسم الشيخ محمد الخضر حسين والشيخ محمد العنابي للحصول على مرتبة الطبقة الأولى للمدرسين في جامع الزيتونة، فتدخل الشيخ بلحسن النجار، ومنع قبول الشيخ الخضر.

وقال الشيخ الصادق النيفر لولده الشيخ محمد الشاذلي النيفر: إنه لا شك أن للشيخ الخضر أخلاقاً رفيعة، ومع ذلك قد ترجم الشيخ الخضر لوالد الشيخ بلحسن النجار.

ومن شعر الإمام محمد الخضر حسين حول هذه الواقعة ـ لم ينشر في ديوانه «خواطر الحياة» ـ:

عجباً لهاتيك النظارة أصبحت ... كالثوب يطرح في يدي قصّار
وأنامل (القصار) تعمل مثل آ ... لات تحركها يد (النجار)

والقصار والنجار من شيوخ الزيتونة.



في معتقل جمال السفاح بدمشق

صفحة أخرى من صفحات الجهاد الإسلامي التي نقرؤها في سجل حياة الإمام محمد الخضر حسين، حين وجد نفسه بين يدي السفاح التركي جمال باشا في مدينة دمشق. واعتقل في شهر رمضان سنة ١٣٣٤هـ (١٥ أوت آب ١٩١٦م) حتى ٤ ربيع الثانـي ١٣٣٥هـ (٢٩ جانفي كانـون الثاني ١٩١٧م)، وجرت محاكمته أمام المجلس العرفي العسكري، برئاسة فخري باشا، وطلب المدعي العام من هيئة المحكمة إنزال عقوبة الإعدام بالإمام بحجة «أني حضرت مجلساً أخذ فيه بعض المحامين يخوض في سياسة الدولة بعبارات جافية، حتى استفتى في نكث العهد من طاعتها، فأخذت أكافحه بالحجة، وأقاومه بالموعظة وضرب المثل، كما شهد بذلك الشيخ صالح الرافعي»[1]. وقد سعى المحامي إلى تأسيس جمعية تدعو إلى الانفصال عن الدولة العثمانية، والخروج عنها، ثم إن إدارة البوليس «رأتني مسؤولاً

---

(١) جريدة «لسان الشعب» التونسية ـ العدد ١١٣ الصادر بتاريخ ١٦ صفر ١٣٤٢هـ الموافق ٢٦ سبتمبر أيلول ١٩٢٣م. من رسالة بعث بها الإمام إلى صديق له في تونس، رداً على ما ورد في مجلة «البدر» التونسية ـ العدد الأول من المجلد الثالث، يستشف منه انحياز الإمام لخدمة الدعوة العربية دون الجامعة الإسلامية. كما نشرت الرسالة في كتاب «من أوراق ومذكرات الإمام محمد الخضر حسين ـ رسائل الخضر» الذي جمعت فيه بعض رسائل الإمام.

عن عدم إبلاغ ما صدر من ذلك المحامي للحكومة في حينه، وأذنت باعتقالي حتى يرى المجلس العرفي رأيه»[١].

ودام الاعتقال ستة أشهر وأربعة عشر يوماً في (خان مردم بك)[٢] بمدينة دمشق، وهو مكان مخصص لاعتقال رجال السياسة في عهد جمال باشا. ومن رفاقه في السجن: الرئيس: شكري القوتلي الذي شغل منصب رئيس الجمهورية السورية، وفارس الخوري الذي أصبح رئيساً للوزراء، وسعدي بك ملا[٣] الذي أصبح رئيساً للوزراء في لبنان، وكان سكرتيراً لشكري الأيوبي وقت الاعتقال.

وحكم المجلس العرفي بالبراءة[٤]. وقرر المجلس العرفي ما قدم له المدعي العمومي من مخاطبة جمال باشا بطلب مكافأة «ولكني لم أتشبث بهذ القرار، وقنعت بما ظهر للدولة والأمة من طهارة ذمتي، وعدم تسرعي إلى النفخ في لهيب الفتنة على غير هدى»[٥].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) هو الآن سوق تجاري معروف بمدينة دمشق.

(٣) كان الأستاذ سعدي بك الملا رفيق الإمام في زنزانة واحدة، ومن روائع شعر الإمام في المعتقل «ديوان خواطر الحياة»:

جرى سمر يوم اعتقلنا بفندق	ضحانا به ليل وسامرنا رمس
فقال رفيقي في شقا الحبس: إن في الـ	ـحضارة أنساً لا يقاس به أنس
فقلت له: فضل البداوة راجح	وحسبك أن البدو ليس به حبس

(٤) للإمام في مذكراته المخطوطة أفكار مستفيضة عن فترة اعتقاله وأخباره فيها.

(٥) كتاب «من أوراق ومذكرات الإمام محمد الخضر حسين ـ رسائل الخضر».

ومن شعر الإمام في السجن:

غـلّ ذا الحـبس يـدي عـن قلـم ... كان لا يصحو عن الطرس فناما
هـل يـذود الغمـض عـن مقلتـه ... أو يلاقـي بعـده المـوت الزؤاما
أنـا لـولا همـة تحـدو إلـى ... خدمـة الإسـلام آثـرت الحِماما
ليـست الـدنيا ومـا يقـسم مـن ... زهرهـا إلا سـراباً أو جَهامـا

ومن شعره في السجن أيضاً:

ولقد ذكرتك في الدجى والجند قد ... ضربوا على دار القضاء نِطاقـا[1]
وقضاة حرب أرهفـوا أسـماعهم ... وصدورهم تغلي علـيَّ حناقـا[2]
والمدعي يغري القضاة بمصرعي ... ويـرى معانـاتي الـدفاع سياقا[3]
أتـروع أهـوال المنـون متيمـاً ... جرّعْتـه بعـد الوصـال فراقـا

❐ ❐ ❐

(١) دار القضاء: المجلس العرفي العسكري بدمشق الذي حاكم الإمام.

(٢) قضاة حرب: الحكام العسكريون الذين حاكموه.

(٣) المدعي: ممثل النيابة العامة، أو المدعي العمومي الذي طلب إنزال عقوبة الإعدام بالإمام. السياق: نزع الروح.



جهاد الإمام في برلين

تحت أزيـز الرصاص، ومع دوي القاذفات والقذائـف، وفي الأتون المشتعل لهباً ودماراً، وعجيج الحرب وضجيجها يملأ الأسماع ليل نهار، في ذاك الجو المرعب الرهيب، وقف الرجل المؤمن الصابر يدعو الجنود المغاربة الذين وقعوا أسرى الألمان إلى الثورة ضد فرنسا.

لقد جنّد الاستعمار الفرنسي مئات الآلاف من أبناء شمال أفريقيا بالإرهاب والقسر في صفوف جيوشه، وساقهم سوق القطيع إلى مذابح الحرب، ودفع بهم إلى الخطوط الأولى من المعارك التي يخوضها مع ألمانيا، فوقع بالأسر عدد كبير من المغاربة، وخاصة من التونسـيين والجزائريين. وكان الإمـام يتصل بهم ويؤانسهم، ويحرضهم على القتال ضد فرنسا، وليس معها؛ لأن بلادهم تحتاج إليهم في هذا الموقف، ويدعوهم إلى التطوع والجهاد ضد فرنسا[1].

---

(١) يقول الإمام في مقال تحت عنوان: «طغيان الاستعمار وخطر الشيوعية ـ ما نأخذ من نظم الغرب وما ندع» ـ مجلة «الأزهر» ـ المجلد الخامس والعشرون الصادر في غرة ربيع الثاني ١٣٧٣هـ ديسمبر كانون الأول ١٩٥٢م: «كانت هذه الرحلة في أيام الحرب الكبرى، وكنت مع الأسرى الأفريقيين، أتردد عليهم، وأعود إلى برلين، وقد زرت ألمانيا مرتين: أولاهما استغرقت تسعة أشهر، والثانية سبعة أشهر».

أقام في ألمانيا تسعة أشهر في عام ١٩١٧م، ثم أقام فيها مرة ثانية مدة سبعة أشهر في عام ١٩١٨م، ومن رفاقه في الجهاد: الشيخ صالح الشريف، وإسماعيل الصفايحي، وعبد العزيز جاويش، والدكتور عبد الحميد سعيد، واللواء يوسف مصطفى، وغيرهم.

شارك في نشاط (اللجنة التونسية الجزائرية) لتحرير بلاد المغرب والدفاع عن قضاياها. وله في الصحف كتابات هامة، كما ألقى المحاضرات على الجنود المغاربة الأسرى في جيوش دول الحلفاء، والعمل على إمالتهم، وضمهم إلى جانب الثورة من أجل الاستقلال والحرية لأوطانهم.

تعلم اللغة الألمانية[1] وأجادها خلال إقامته في برلين وضواحيها،

---

(١) ذكر شيخ الصحافة التونسية المرحوم الطيب بن عيسى صاحب جريدتي «المشير»، و«الوزير» في كتابه: «من مشاهير العلماء المهاجرين - شيخي المرحوم محمد الخضر ابن الحسين، وصديقي المرحوم محمد الهاشمي المكي» طبعة تونس في جمادى الثانية ١٣٧٨هـ - جانفي ١٩٥٩م، تحت عنوان: «الشيخ الخضر يحسن الألمانية»:

«ومن إقامته ببرلين مدة قصيرة، أصبح عارفاً باللغة الألمانية، ولكنه لم يكن ليتظاهر بالمعرفة، وقد حكى لي مترجمه الأستاذ محمد فهمي عثمان التونسي، سفير الأفغان ببرلين عاصمة ألمانيا وقتئذ: أن الشيخ الخضر يعرف الألمانية، ولا يتظاهر بمعرفتها، بل يتخذ أحد المترجمين كدليل له ظاهرياً».

وتحت صورة الإمام في الكتاب أورد أبياتاً لشيخ أدباء تونس الأستاذ محمد العربي الكبادي يقول فيها:

هــذا رســم مهــاجر مبــرور ... رجــل العلــم والحجــا المــأثور

عــاش دهــراً بتــونس ينـشر العلــ ... ــم وفي مصر مات بعد نشر الزهـور

(كذا في الأصل) =

ودرس المجتمع الألماني وعادات الأمة وأحوالها وأخلاقها، كما درس علوم الكيمياء والطبيعة على يد البرفسور الألماني (هاردر) أحد العلماء الألمان المستشرقين[١].

وكتب عن مشاهداته في برلين[٢]، وله ذكريات مبثوثة في المقالات والبحوث التي نشرها فيما بعد، وله شعر بديع قاله في مناسبات مختلفة في ألمانيا ضمن ديوانه: «خواطر الحياة».

وزار سويسرا وإيطاليا لأغراض سياسية.

أصدرت السلطات الفرنسية حكماً عليه بالإعدام غيابياً؛ لتحريضه المغاربة على الثورة ضد المستعمر، كما صدر الأمر المؤرخ في ١٥ جوان ١٩١٧م والذي تضمن: (حجزت بقصد بيعها أملاك الأخضر بن الحسين المدرس السابق في الجامع الأعظم، الذي ثبت عصيانه). ونشر الأمر في «الرائد التونسي» ـ النسخة الفرنسية ـ الصادرة في ٢٠/٦/ ١٩١٧م.

❒ ❒ ❒

= بين سكانها بحزم وعزم   من بديع المنظوم والمنثور
رحم الله تربة قد حوته   وكساه الفخار يوم النشور

(١) مجلة «مجمع اللغة العربية» ـ الجزء الرابع عشر ـ للأستاذ محمد علي النجار.

(٢) انظر كتاب: «مشاهد برلين» للإمام محمد الخضر حسين، نشرناه في دمشق، نقلاً عن الجزأين السابع والثامن من المجلد الثامن من مجلة «المقتبس» الدمشقية. وأضفنا في المقدمة ما كتبه عن وقائع له في برلين، والشعر الذي نظمه في تلك البلاد أثناء إقامته فيها.



جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية

من صفحات الجهاد السياسي التي نطالعها في سيرة الإمام محمد الخضر حسين: حرصه على الدعوة إلى اتحاد الأمة، والعمل على جمع الأفراد في جمعيات تكسبهم قوة. وما تحققه الجماعة لا يحققه الواحد.

أسس الإمام «جمعية تعاون جاليات أفريقيا الشمالية» سنة ١٣٤٢هـ - جوان حزيران ١٩٢٤م، وسنَّ قانوناً لها. ويقول عنها الإمام: «تأسست هذه الجمعية لتنهض بجاليات أفريقيا الشمالية؛ حتى يسيروا مع إخوانهم المصريين جنباً إلى جنب، يسايرونهم في أفكارهم، في آدابهم، في معارفهم، في كل شأن من شؤون حياتهم الاجتماعية الراقية، وكذلك يجب على كل جالية تعيش بين قوم ناهضين، وكذلك يجب على كل جالية تعيش في بيئة هي أوسع من أوطانها حرية واحتمالاً للمشروعات الإصلاحية.

وللدعوة إلى المنافسة في الخير، والمسابقة في حَلْبة الشرف والسعادة، طرقٌ شتى، ومن أقربها، وأبلغها أثراً: إلقاء محاضرات تتمثل فيها سيرة رجال أدركوا بصفاء ألمعيتهم، وكبر هممهم مكانةً راسخة، وسمعة فائقة»[1].

---

(١) من مقدمة المحاضرة التي ألقاها الإمام مساء يوم الجمعة في ٥ صفر ١٣٤٣هـ الجزء الرابع من المجلد الأول لمجلة «الزهراء» الصادر في ١٥ربيع الثاني ١٣٤٣هـ. وعنوانها (حياة ابن خلدون، ومثل من فلسفته الاجتماعية). وطبعت ضمن كتاب «تونس =

وقد ساهمت الجمعية في نشاط ثقافي[١]، وشكلت لجنة لنشر آداب أفريقيا الشمالية.

وكانت هيئتها الإدارية على الشكل التالي:

ـ الإمام محمد الخضر حسين ـ تونس ـ رئيساً.

ـ الأستاذ طاهر محمد التونسي ـ تونس ـ عضواً.

ـ المحامي محمد عبد الوهاب ـ المغرب ـ عضواً.

ـ الدكتور عبد العزيز قاسم ـ المغرب ـ عضواً.

ـ الأستاذ محمد الرزقي ـ الجزائر ـ عضواً.

ـ الدكتور محمد عبد السلام العيادي ـ الجزائر ـ عضواً.

ـ الأستاذ محمد التهامي نصر ـ ليبيا ـ عضواً.

ـ الأستاذ عبدالله الكافي ـ ليبيا ـ عضواً.

واتخذت من عيادة الدكتور عبد العزيز قاسم الكائنة في القاهرة ـ السبع قاعات البحرية بالسكك الحديدية مقراً لها[٢].

= وجامع الزيتونة» للإمام، كما نشرت مستقلة عدة مرات في دمشق والقاهرة.

(١) أوردت مجلة الزهراء ـ الجزء الثالث من المجلد الأول الصادر في ١٥ ربيع الأول ١٣٤٣هـ ـ القاهرة. للأستاذ محب الدين الخطيب قولها «أسست جمعية تعاون جاليات شمال أفريقيا في القاهرة لجنة لنشر آداب أفريقيا الشمالية العربية وحضارتها برئاسة الأستاذ السيد محمد الخضر التونسي؛ للبحث عن الكتب التي تعرضت لهذا الموضوع، وإلقاء المحاضرات فيه، وترجمة ما ورد عن ذلك في الصحف والكتب الأجنبية، وقررت نشر ما يحرره أعضاؤها في الزهراء».

(٢) ننشر قانون (جمعيات تعاون جاليات أفريقية الشمالية) في الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب للتاريخ.



جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية

من صفحات الجهاد الإسلامي التي خطها الإمام، وأضافها إلى سجله المشرق في مقارعة الاستعمار الفرنسي: دعوته لتنظيم جاليات المغرب العربي المقيمة في القاهرة في جبهة واحدة متراصة، غايتها الدفاع عن شعوب شمال أفريقيا: تونس، والجزائر، والمغرب، وليبيا[1].

نظر الإمام محمد الخضر حسين إلى حال دول شمال أفريقيا، وما آلت إليه الأمور على يد المستعمر الفرنسي من محاربة شرسة عنيفة للغة القرآن، ونشر ويلات الجهل والفقر، و(فَرْنَسَة) المعاهد العلمية والمؤسسات الحكومية،

(١) يقول الأستاذ أنور الجندي في كتابه «الفكر والثقافة المعاصرة في الشمال الأفريقي»: «ولا شك أن محمد الخضر حسين كان علماً من أعلام الفكر المغربي الإسلامي، مكافحاً وطنياً، ومغترباً في سبيل الحفاظ على حرية الكلمة، وأقام ـ كابن خلدون ـ بقية عمره في مصر، ورقي فيها إلى أعلى المناصب، وعمل في ميدان الإصلاح الإسلامي واللغوي، وعمل في التدريس والصحافة والكفاح الوطني، ولقد أتيح له أن يقاوم حركات التغريب بدعوته إلى إنشاء (جمعية الشبان المسلمين). وكانت مجلته وقلمه من ألسنة الدفاع عن المغرب العربي وقضاياه، ورسولاً قوياً يستصرخ المشارقة حين يكشف لهم عن مؤامرات الاستعمار، ويدعوهم إلى مقاومة التغريب والتجنيس والفرنسة، فهو منذ أقام في مصر بعد الحرب العالمية الأولى يحمل هذه الرسالة، ويعمل في كل هذه الميادين: الإسلام، واللغة، والكفاح السياسي».

ونقل البلاد إلى الجنسية الفرنسية من عروبتها وإسلامها، وتحويل المساجد إلى ثُكنات عسكرية، وجعل شعوبها في مذلة ومهانة الاحتلال البغيض، بعد أن كسرت فرنسا الأقلام الحرة، وكممت الأفواه، ولم تعد الآذان تسمع إلا قرقعة السلاح، والدعوات إلى اعتناق الأفكار الأجنبية الخبيثة، وطرح مكارم الأخلاق، وفي اعتقادهم أن هذا الأسلوب يقود المغرب إلى أن يصبح قطعة من فرنسا، ولم يعلموا ـ قاتلهم الله ـ أن القرآن حافظ للغة، وأن الإسلام سيبقى إلى اليوم المشهود. نظر إلى هذا كله، فلم يطق صبراً، وخفقت الروح بين جنبيه تدعوه إلى العمل[1].

والإمام أكثر الناس شعوراً بإرهاب فرنسا وتعذيبها وجرائمها، وقد لاحقته من مطلع حياته في تونس، إلى دمشق، وإستنبول، وبرلين، ثم إلى دمشق والقاهرة، وحكمت عليه بالإعدام، وأمرت بمصادرة أمواله في تونس «ولم تكن لديه أموال».

لبت الجاليات المغربية دعوته المباركة، والتفت حول الإمام في مشهد رائع، وأنشأ جبهة تدعى (جبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية)، ومقرها في

---

(١) من كتاب «من الفكر والقلب» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي يقول تحت عنوان: «محمد الخضر حسين عالم فذ ومجاهد من الرعيل الأول»: «كان كأنما يستشعر دائماً أنه لم يخلق لنفسه، وإنما للإسلام، والروح التي تخفق بين جنبيه لم يكن يشعر أنها شيء آخر غير روح الإسلام التي يجب أن تظل خفاقة في عالمه الذي يعيش فيه، ولذا فقد كان يلتمس في الدعوة إلى الحق والثورة على الباطل وإنارة سبل الإسلام غذاء حياته، وراحة نفسه، تماماً كأي شخص يبحث عن هذه الراحة في لقمة الطعام، وجرعة الماء، وأسباب الدنيا».

دار «جمعية الهداية الإسلامية» في القاهرة[1]، ولم تتخذ لنفسها مكتباً مستقلاً في البناء؛ حفظاً على مال الجبهة مع قلته، وفي بناء «جمعية الهداية الإسلامية» متسع لكل عمل إسلامي نبيل.

ـ عقدت الجبهة اجتماعها الأول في شهر ذي الحجة ١٣٦٣هـ، وتم انتخاب هيئة المكتب والأعضاء كما يلي[2]:

هيئــة المكتب

* **فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين:**

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية ـ رئيس

* **الأمير مختار الجزائري:**

رئيس لجنة الدفاع العليا عن الجزائر ـ نائب رئيس

* **نجيب بك برادة:**

عضو مجلس الشيوخ ـ نائب الرئيس

* **الأستاذ الفضيل الورتلاني:**

سكرتير لجنة الدفاع عن الجزائر ـ سكرتير عام

* **الأستاذ أحمد بن المليح:**

ماجستير بكلية الآداب ـ سكرتير مساعد

---

(١) إدارة «جمعية الهداية الإسلامية» ومجلتها «الهداية الإسلامية» التي كان يرأسهما الإمام محمد الخضر حسين تقع في شارع مجلس النواب رقم ٢٩ القاهرة. ونجد نفس العنوان على نشرات ودعوات الجبهة المطبوعة.

(٢) نشرت مجلة «الهداية الإسلامية» أسماء أعضاء الجبهة في الجزء السابع من المجلد السابع عشر الصادر في المحرم ١٣٦٤هـ.

*** الأستاذ محسن مصطفى بيرم :**

ليسانسيه بكلية الحقوق — سكرتير مساعد

*** السعيد أفندي عمر بن فايد :**

من كبار التجار — أمين المال

*** أحمد أفندي السعدي :**

من التجار — سكرتير مالي

*** مصطفى بك بيرم :**

مستشار بالمحكمة المختلطة سابقاً — مستشار

*** محمود بك الطوير :**

مستشار قضائي سابقاً — مستشار

*** الدكتور العيادي :**

مدرس بكلية الطب — مستشار

الأعضـــاء

الشيخ إسماعيل علي	ـ مدرس بمعهد القاهرة
الشيخ السعدي محمود	ـ مدرس بمعهد القاهرة
الشيخ إبراهيم أطفيش	ـ موظف بدار الكتب المصرية
حمودة أفندي بن فايد	ـ من كبار التجار
الشيخ عبدالله الصديق	ـ من العلماء
الحاج حسن التلمساني	ـ تاجر
الأستاذ العربي البناني	ـ ماجستير بكلية الآداب

الأستاذ الصديق سعدي ـ ليسانسيه بكلية الآداب

الأستاذ مهدي صابر ـ تخصص التدريس

الأستاذ عبد الكريم بن ثابت ـ كلية الآداب

الشيخ الهلالي محمد ـ من العلماء

أحمد أفندي بن دربال ـ موظف ببنك مصر

وانتخبوا بالإجماع للتمثيل والاستشارة في جامعة الدول العربية الآتية أسماؤهم:

مفوضيـن

فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين ـ نجيب بك برادة

الأستاذ الفضيل الورتلاني ـ الدكتور العيادي

مستشـــارين

نجيب بك برادة

الدكتور العيادي

وسينتخب عضو ثالث عن مراكش.

وجاء في النداء الأول للجبهة، الذي يشـير إلى فرنسـا وجرائمها: «وما ارتكبته هناك من فضائح التنكيل والتقتيل، لمما زاد الوطنيين حماسة لقضيتهم، وقوى اتجاههم إلى العمل لتحرير أوطانهم. وقد عرف صدق عزيمتهم جاليات في مصر من أبناء تلك البلاد، فأنشؤوا جبهة تدعى: «جبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية»؛ لتكون عوناً لتلك الشعوب على بسط قضيتهم للعالم الإسلامي، وتتولى الدفاع عنها بيقظة وحزم، وتعمل لهز العواطف

النبيلة في نفوس الأمم الإسلامية، حتى يشدوا أزرنا في العمل لتحرير[1] وإسعاد خمسة وعشرين مليوناً من العرب المسلمين، وإنقاذهم من الاندماج في الجنسية الفرنسية، وانقلابهم إلى الديانة النصرانية وهما الغرضان اللذان تعمل لهما فرنسا ليلها ونهارها».

عملت الجبهة أقصى ما يمكنها للتعريف في قضايا المغرب، وعقدت المؤتمرات واللقاءات مع المسؤولين العرب والمسلمين، وشرحت للناس كافة في المشرق ما تتعرض له شعوب المغرب، وحفزت الهمم، وكشفت جرائم فرنسا وخططها الدنيئة أمام الرأي العام في بلاد لم تكن تسمع عن المغرب العربي إلا اسمه.

بذلت الجبهة وسعها في خدمة قضايا المغرب، وكانت أعمالها ومواقفها المشرفة، ومحاضراتها ونشرياتها ومساعيها مع ملوك ورؤساء الدول العربية والإسلامية دعماً قوياً لحركات الاستقلال في المغرب[2].

---

(١) «وكان الشيخ يجهد دهره في تحرير المغرب، فكان رئيس جبهة (الدفاع عن أفريقية الشمالية)، وكانت هذه الجبهة تضم علية الأحرار الذين يسعون إلى نجاة المغرب من حكم فرنسا الجائر، وقد يكون من ثمار هذه الجبهة: ثورة الجزائر، ونهضة تونس ومراكش» ـ الأستاذ محمد علي النجار في الجزء الرابع عشر من مجلة «مجمع اللغة العربية بالقاهرة».

(٢) يقول الكاتب الإسلامي الكبير أخونا الأستاذ سعدي أبو جيب: «لقد عاد لتونس أريج الحرية بفضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لأنه أقدرك ـ يا سيدي العلامة ـ على النضال الذي كنت تغذي به رجال السياسة والعلم والأدب، حين كانوا يتوافدون إلى دارك العامرة، وإلى رابطة (تعاون جاليات أفريقية الشمالية) التي أسست، والتي قامت بعقد المؤتمرات والندوات لشرح قضية المغرب العربي للعرب، =

لم يضن بوقته أو مكانته في الأوساط الحكومية والعلمية في مصر من أجل غايات الجبهة وتحقيق أغراضها، الجبهة التي ضم عقدها ثلة من أفاضل القوم، والتف حولها كل مغربي منصف صادق لا يهدف إلى كسب دنيوي، أو سمعة زائفة، أو تزاحم، بل وصراع على الشهرة وخطف الأضواء للوصول إلى كرسي الحكم بأي ثمن. وفي مثل هذا السباق المشين تضيع قضايا الأمة.

قاد الإمام محمد الخضر حسين جبهة الجهاد بكل حزم وإيمان وحب للوطن؛ «فقد كان شديد الاهتمام بوطنه، حريصاً على تتبع حالته والاتصال بأبنائه، وإعانتهم في كل الميادين العلمية والسياسية، حتى الشخصية، وكان بيته كعبة للتونسيين القادمين إلى القاهرة للزيارة أولاً، والإعانة إذا دعت الحاجة إلى ذلك ثانياً، كما قدم خدمات جليلة للقضية التونسية، فسخر مكانته العلمية والثقافية من أجل مساعدة المدافعين عن هذه القضية؛ من حيث التعريف بهم لدى السلطات المصرية، والهيئات والمسؤولين العرب العاملين بالقاهرة»[1].

= وللمسلمين، وللعالم، وإلى (جبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية) التي لعبت دوراً رائعاً في وحدة النضال عند شباب المغرب العربي الأحرار». ويقول أيضاً: «كيف ينسى تونس الخضراء، وهو الذي ألقى المحاضرات، وكتب الدراسات المستفيضة عن الحالة العلمية في ذلك الوطن، وقدم بأدب وفخر واعتزاز للمجتمع المصري أعلاماً من تونس لم يكن لاسمهم ولسيرتهم من ذكر في مصر، فأي تعبير عن حب الوطن والوفاء له أصدق من ذلك؟» ـ مجلة «حضارة الإسلام» ـ العدد الرابع ـ السنة الثامنة عشر ـ جمادى الآخرة ١٣٩٧هـ ـ حزيران ١٩٧٧م ـ دمشق.

(١) الأستاذ محمد مواعدة في كتابه: «محمد الخضر حسين ـ حياته وآثاره» طبعة دمشق سنة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ـ صفحة ١١٨.

وانضم إلى الجبهة أكثر اللاجئين السياسيين المقيمين في مصر، ونخبة من المناضلين المغاربة من الحزب الحر الدستوري التونسي، وجمعيات العلماء المسلمين الجزائريين، وحزب الشعب الجزائري، وعدد من المستقلين والعاملين في الدعوة الإسلامية، أمثال: الفضيل الورتلاني، ومحيي الدين القليبي. ومن المؤازرين لها: أحمد تيمور باشا ـ رحمه الله ـ.

لم يرق لبعض السياسيين أن تستمر الجبهة برئاسة شيخ يلبس الزي الأزهري، ويضع على رأسه العمامة، ويخاف الله في السر والعلن، ويجعل من قضايا المغرب العربي قضايا إسلامية بالمرتبة الأولى. ووجدوا أنفسهم في الصفوف الخلفية من الاستعراضات أمام عدسات التصوير وفي المنتديات والنوادي.

ولم يكن ممكناً أن ينزعوه من رئاسة الجبهة؛ لمكانته السامية في قلوب المغاربة والمصريين على سواء. فعمدوا إلى الانشقاق عنها ومحاربتها، وإقامة منظمات أخرى، وتنازعوا، وذهب ريحهم، وتفرقوا إلى مكاتب، وتفرق المكتب إلى تكتلات. مما لا فائدة ترجى من تفصيله هنا.

رأى الإمام أن هذا الصراع بؤرة فاسـدة لا تؤدي إلى خير، وأنه هو الشيخ الوقور، والعالم الزاهد، والمجاهد الصامت، لا يعنيه مثل هذا التكالب والتناطح، ووجد نفسه أنه قد أدى الأمانة، ونصح الأمة، وفي جعبته أعمال جليلة أخرى يخدم بها رسالة الجهاد والإسلام(١).

---

(١) قال أحد الكتاب في جريدة «أفريقيا الشمالية» تونس ـ العدد ٢٧ الصادر في ٢٩ جويليه الموافق ١٥ شوال (سنة ١٩٥٠م ـ ١٣٦٩هـ):

«فيما يتعلق بشخصية مفخرة المغرب الإسلامي العلامة الجليل الشيخ الخضر =

= حسين، وجبهة الدفاع عن شمال أفريقيا التي كان يرأسها، وما لاقاه في القاهرة من معاكسات المفسدين من رجال مكتب المغرب العربي، أذكر لكم: أن الشيخ الخضر هذا هو أول من أسس من أبناء المغرب في القاهرة جمعية تلم شتاتهم، وتوحد قواهم للدفاع عن أوطانهم، وذلك إثر قدومه إلى القاهرة بعد جهاد طويل في سبيل المغرب، لاقى فيه ما لاقى، وتحمل النوائب الجسام، وأنفق من ماله ووقته وصحته الشيء الكثير دون أن يطالب أحداً بدرهم، أو يمده أحد بمال، ولا كلمة شكر، فكان جهاده خالصاً لله، منقطعاً فيه إلى المثل الأعلى.

قدم إلى القاهرة، فأسس جمعية اتحاد جاليات شمال إفريقيا، اجتمع فيها الليبيون والتونسيون والجزائريون والمراكشيون، ودامت هذه الجمعية تعمل للدفاع عن المغرب، حتى جاءت الحرب الأخيرة، فتعطلت عن العمل كسائر الجمعيات، وبعد هذه الحرب أسست الجالية الإسلامية في القاهرة جمعيات للدفاع عن أوطانها والذود عن قضاياها.

فأسس الشيخ الخضر جبهة الدفاع عن شمال أفريقيا بدلاً من الجمعية الأولى، وأخذ يعرض قضية المغرب بواسطتها على وفود دول الجامعة العربية وغيرها من المنظمات الدولية، وملأ صحف الشرق كله دعاية لقضية المغرب، وسخّر منابر الأحزاب والجمعيات لهذه الغاية، في مصر والعراق وسورية ولبنان والحجاز، حتى أصبح العالم العربي والعالم الإسلامي على بينة من هذه القضية.

ولا أقول هذا مجرد دعوة، بل المطبوعات التي طبعت ووزعت في هذا الشأن من رسائل ومجلات وجرائد وتقارير تشهد بهذا، ومكتبات الشرق زاخرة بها، وأصبح نادي جبهة الدفاع عن شمال أفريقيا هدف كل زعيم وعظيم، ومرجعاً تستقى منه أخبار هذه الأقطار.

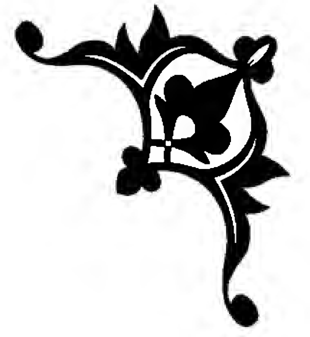
فقام جماعة ممن اتخذوا السياسة تجارة، ولم ترق لهم أعمال المخلصين، فأسسوا مكتب المغرب العربي؛ لمقاومة الجبهة، والقضاء عليها؛ إذ لم يقدر لهم أن يكونوا فيها رؤساء وزعماء، وهم يريدون، من الجهاد الرئاسةَ والزعامة وكسب المال... إلخ».

يقول الأستاذ عبد القادر سلامة عن الإمام: «كان ـ رحمه الله ـ علَماً من أعلام الإسلام، وكان تعريفاً وتشريفاً للتونسيين وجامع الزيتونة، ومفخرة للمغرب الإسلامي كله، كان خلقه قبساً من شمائل النبوة، ومشكاة من هدي القرآن»[1].

❒ ❒ ❒

(١) كتاب: «الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر» (صفحة ١٤٦).





الإمام محمد الخضر حسين والرئيس الحبيب بورقيبة

كثيراً ما تجنبت الخوض في الحديث عن طبيعة العلاقة بين الإمام وبورقيبة؛ لأن هذه الأحاديث لا تقدم أو تؤخر في مكانة الإمام العلمية، وليس من فائدة ترجى من وراء إذاعتها ونشرها. وكثيراً ما أصر رجال الفكر والأدب ـ وخاصة في تونس ـ أن أقول ما عندي، وأخرج ما في جعبتي، فكنت أعتذر، وأصر على الاعتذار بما يزيد على إصرارهم.

من الواجب عليَّ أن التزم برغبة الإمام التي أعربَ عنها مرات ومرات أن لا تنشر مذكراته التي أعدها تحت عنوان: «مراحل الحياة» في ثلاثة أجزاء. وعندما اقترح عليه بعض العلماء في القاهرة نشر هذه المذكرات قال لهم: «لقد فكرت في نشرها أو عدم نشرها، واستخرت الله، ووجدت أن نشرها يعتبر حديثاً عن النفس، وفيه تزكية لنفسي، وأنا لا أريد أن أزكي نفسي، وليستفد من شاء بما شاء من كتاباتي»[1]، ومذكراته ـ رحمه الله ـ تناول فيها الحديث عن رجال السياسة في عصره. سواء في تونس وسورية ومصر،

---

(١) انظر كتاب: «أحاديث في رحاب الأزهر» للإمام محمد الخضر حسين، والذي أعددته عن نشاط الإمام العلمي في الأزهر ـ كلمة الدكتور زكي البري في احتفال بذكرى الإمام.

وفيها عبارات صريحة لا ترضي المزيفين من رجال السياسة والعلم والتاريخ.

ولكن أجدني مضطراً لتصحيح وقائع تاريخية، حرّفها من صورها في محاضراته، وتحدث فيها عن بطولاته، ونشرت عبر وسائل الإعلام والصحف والكتيبات، وما أردت بهذا التصحيح أن أخرج عن طاعة الإمام، لولا أن الرئيس بورقيبة لم يقل ما يجب أن يقال، والحق أحق أن يتبع.

زرت تونس للمرة الأولى، ودخلتها براً من مدينة «بن غردان» في ٨/١١/ ١٩٥٧م، وغادرتها جواً من مطار «العوينة» في ١٧/١١/ ١٩٥٧م.

وقد شجعني على هذه الزيارة سماحة العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الذي كان يعاملنا كأبنائه، نتيجة المحبة الصادقة القائمة بينه وبين سيدي الوالد زين العابدين، وكان يرأس مكتب جمعية العلماء الجزائريين في القاهرة. وطلب من بعض العاملين في الحركة الوطنية الجزائرية أن يرفدوني رفيقاً لهم في رحلة برية عبر ليبيا إلى مدينة تونس، وكانوا في مهمة لنقل المعونات إلى جبهة التحرير. وسعدت بتلك الرحلة التي واصلت سيرها ليلاً نهاراً، وكنت في رفقة المناضل العالم الشيخ العباس بن الحسين الذي استلم في آخر حياته إماماً لمسجد باريز.

نزلنا في فندق متواضع في نهج قرطاج، وفي اليوم التالي اتصلت بالعلامة البحر الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، مفتي الجمهورية التونسية، ولمست من سعادته وابتهاجه في وجودي بتونس ما أكد لي الصداقة النادرة التي كانت تربط العم الإمام محمد الخضر حسين بالإمام محمد الطاهر بن عاشور، الذي تشرفت وتباركت بلقائه في قصر آل عاشور بالمرسى بتونس على حفل عشاء خاص. ووجد علماء تونس ورجالها في شخصي ممثلاً للإمام

ومن عائلتـه، فلقيت من التكريـم ما لا قـدرة لي على وصـفه أو شـكره في آن واحد.

أنبأ العلامة محمد الفاضل بن عاشور الرئيس بورقيبة عن وصول فرد من عائلة الإمام محمد الخضر حسين، وكأني بالشيخ الفاضل قصد تكريم الإمام من خلال الاهتمام بي، لاسيما وأن هناك مشاورات قائمة لزيارة الإمام إلى تونس.

انتقلت إلى فندق (تونسيان بلاس) أفخم فندق آنذاك، وبضيافة الرئاسة، والتقيت بالرئيس بورقيبة في قصر قرطاج برفقة شيخنا الفاضل بن عاشور، وكان اللقاء مدة جرت فيها ذكريات عن الإمام الخضر، والرئيس بورقيبة، واستمعت منه لأقوال صادقة عن جهاد الإمام وفضله وعلمه، وما قدمه لتونس من سمعة راقية في العالم الإسلامي.

وللتاريخ أقول: إن الرئيس بورقيبة في ذاك المجلس الخاص أبان عن مكانة عظيمة يكنها ويحفظها في صدره للإمام، وما قدمه له شخصياً من مساعدات أثناء دخوله مصر.

ولكن يبدو أن للسياسة أخلاقاً خاصة بها... وها هو الحبيب بورقيبة يتحدث عن الإمام في إحدى محاضراته عام ١٩٧٣م، فيقول عن رحلته إلى القاهرة عام ١٩٤٥م عندما وقع اعتراضه من قبل السلطات على الحدود الليبية المصرية؛ لعدم وجود جواز سفر في حوزته: «لكني وجهت برقيات إلى السيد عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية في تلك الفترة، وإلى الشيخ الخضر بن الحسين، وهو أصيل منطقة الجريد بتونس، شغل منصب شيخ الأزهر في عهد اللواء نجيب، وكان يرأس جمعية الدفاع عن

شمال أفريقيا، وطلبت منهما أن يقوما بعمل يمكنني من الحصول على صفة لاجئ سياسي، ومن السماح لي بالعمل. . .».

ولم يتحدث بورقيبة صراحة أن الإمام قام بمساعي حميدة، وتعهده الشخصي لدى اللواء صالح حرب باشا، ووزارة الداخلية؛ مما سهل وصوله إلى القاهرة، وبكل تكريم، وإقامته في دار الإمام المتواضعة الليلة الأولى، وانتقاله للمبيت في اليوم التالي إلى غرفة خاصة لدى إحدى الجمعيات الإسلامية أعدها له الإمام.

وفي مواضع أخرى من المحاضرة يقول بورقيبة: «وفي يوم من الأيام اتصلت بي سفارة فرنسا في القاهرة، وعرضت عليَّ الاتصال بها، وإجراء حوار للتفاهم، فلبيت الرغبة مؤكداً أني دوماً على استعداد للتفاهم. وتقابلت مع (الكابيتان سوليي) مستشار السفارة. . . فسلمت له تقريراً يظهر أنه نال إعجابه؛ نظراً لصيغته المعقولة. . .

وبعد مدة اتصل الشيخ الخضر بن الحسين بجماعة ليقول لهم: إن الأنباء متواترة عن اتصال سي الحبيب بالسفارة الفرنسية، والتواتر يفيد القطع. فقلت له: أنا أعرف فرنسا، وأعرف سجونها التي لا تعرفها أنت. . .».

أضع هذه الكلمات تحت النظر دون تعليق. ولكن أقول كلمات: إن اتصال بورقيبة بالفرنسيين بالقاهرة كان السبب في إخراجه من جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية، وأكتفي بهذه العبارات؛ لأن التوسع فيها يوصل إلى طريق الخروج عن رغبة الإمام في عدم التعرض لمذكراته. وفي أوراق الإمام أحداث وأحداث ليته سمح بنشرها ـ رضوان الله عليه ـ.

ومن الوفاء للتاريخ أن أقول: إن الرئيس بورقيبة أوعز إلى السفارة

التونسية بالقاهرة يوم وفاة الإمام في ٣ رجب ١٣٧٧هـ الموافق ٣ فبراير شباط ١٩٥٨م بنقل جثمانه الطاهر إلى تونس.

ليُوارى الثرى هناك في الأرض التي أحبها وأحبته، وأوعز إلى السفارة بنعيه بقولها: «كان رحمة الله عليه ـ من المجاهدين الأوائل الذين أرسوا دعائم الحركة الوطنية التونسية، وممن شردهم الاستعمار عن وطنهم، فهاجر يحمل صوت بلاده إلى مختلف الأقطار، حتى استقر به الطواف في مصر الشقيقة؛ حيث واصل نشاطه في سبيل الإسلام والعروبة. رحمه الله واسعة، وأقر عين الإسلام والعروبة بما كان الشيخ الخضر يأمله لهما»[1].

❑ ❑ ❑

(١) «جريدة الأهرام» ـ العدد ٢٥٩٨٨ ـ تاريخ ٣/ ٢/ ١٩٥٨م ـ القاهرة.



جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية[1]

برقية أرسلت إلى كل واحد من وزراء خارجية الدول الخمس: إنكلترا، وأمريكا، وروسيا، والصين، وفرنسا.

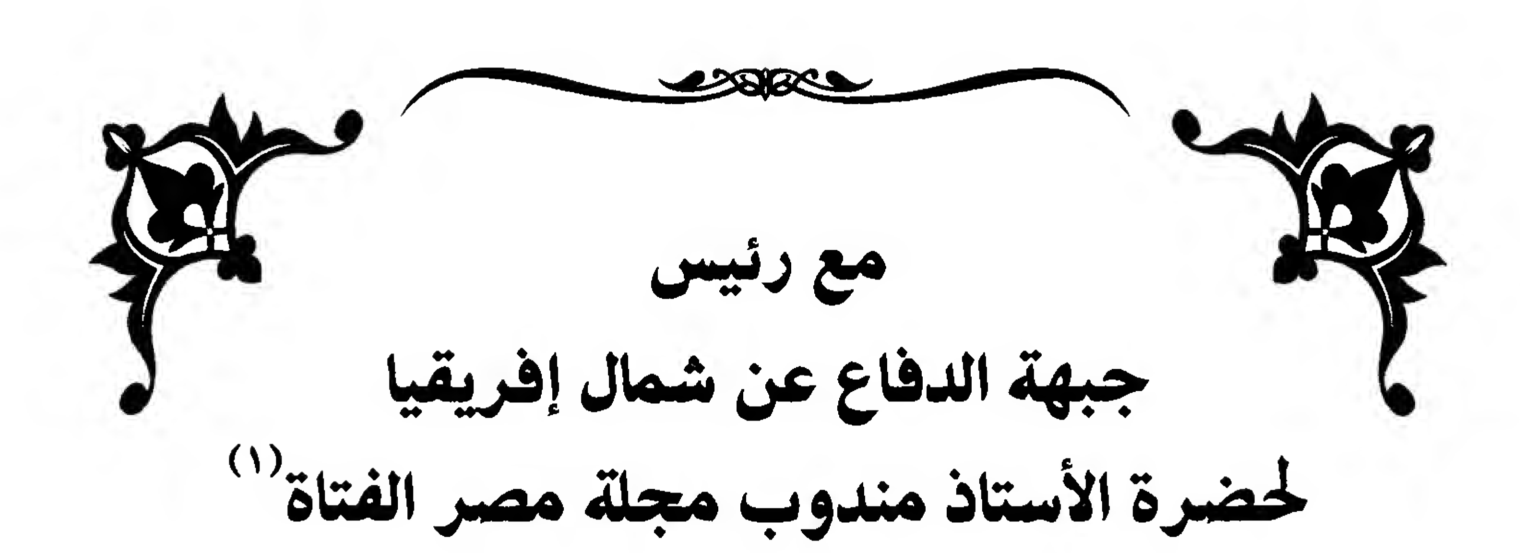
بمناسبة اجتماعكم للنظر في مصير الشعوب، وأمامكم الهدف السامي الذي هو بناء سلام عام تسعد به الأمم قاطبة، تذكر جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية مؤتمركم الموقر بأن في شمال أفريقيا: تونس، والجزائر، ومراكش نحو خمسة وعشرين مليوناً من العرب، سيشاركونكم في بناء السلام العام، متى ساعدتموهم على التخلص من الاستعمار الجائر، وأصبحوا يديرون شؤونهم السياسية بأيديهم.

رئيس الجبهة

محمد الخضر حسين

❒ ❒ ❒

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الأول من المجلد الثامن عشر الصادر في رجب ١٣٦٤ هـ ـ القاهرة.



مع رئيس
جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا
لحضرة الأستاذ مندوب مجلة مصر الفتاة(١)

أقامت جبهة الدفاع عن شمال أفريقيا التي يرأسها فضيلة الأستاذ محمد الخضر حسين مأدبة شاي في دار (الهداية الإسلامية)، وقد حضر الحفل كثير من حضرات إخواننا العرب المهتمين بالشؤون العربية، كما حضره الصحفيون، وبعض أعضاء مجلس النواب، وقد خطب في هذا الحفل حضرات الأساتذة: رئيس الجبهة، وأحمد السعدي، والفضيل الورتلاني، وأحمد الحصري (نائباً عن الأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة)، والنائب المحترم محمد حنفي الشريف.

وقد دار الحديث بين فضيلة رئيس الجبهة ومندوبنا عما يهم قضية شمال أفريقة ملخصاً في هذا الحديث:

س ـ يقول كثير من المتتبعين لشؤون السياسة: إن شمال إفريقيا خلق للاستعمار، فهو للآن لم يتخذ لنفسه خطة الدول التي تريد الحرية، ويضربون المثل لما حدث بعد هذه الحرب من انقيادهم لفرنسا رغم ضعفها، فما رأيكم؟

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثاني من المجلد الثامن عشر الصادر في شعبان ١٣٦٤هـ ـ القاهرة.

ج ـ إذا صح أن يكون في الشعوب من خُلق للاستعمار، فإن شمال إفريقيا خلق غير هذا الخلق، وأول بلاد في شمال أفريقيا امتدت إليها يد الاستعمار بلاد الجزائر، وقد قام أهل الجزائر بما في أيديهم من سلاح، واستمروا في دفاع فرنسا نحو سبع عشرة سنة، إلى أن نفد ما عندهم من وسائل الدفاع، ولم يجدوا من غير أنفسهم مناصراً، فاضطروا لذلك الحين إلى ترك القتال، ولكنهم لم يستقروا على مسالمتها، أو يسكتوا عما تحاوله من إدماجهم في جنسيتها، بل كانت ثوراتهم عليها بالسلاح متواصلة، ولم تنقطع هذه الثورات، على شدة ما تقابلها به فرنسا من القتل والنفي والسجن، وآخرها هذه الثورة التي لا تزال أنباؤها تقرع الأسماع، وتشغل جانباً من الصحف الغربية والشرقية.

واحتلت فرنسا بعد الجزائر البلاد التونسية بمعاهدة أكرهت سمو الباي على توقيعها، وسمتها حماية، وعلى الرغم من أن الحكومة التونسية، وما تحت يدها من الجنود، لم يدخلوا في حزب فرنسا، قامت بعض المدن والقبائل في وجه الاحتلال بما لديهم من السلاح، واشتبكوا مع فرنسا في مواقع أعربوا بها عن عدم رضاهم بسلطان الأجنبي، وأشهدوا التاريخ على بطولتهم واستهانتهم بالموت في سبيل كرامتهم، ولم يترك التونسيون مقاومة الاستعمار، والسعي وراء استرداد حقوقهم المسلوبة، وكم لاقى زعماء تلك الحركات من سجن واعتقال، وعزل من الوظائف، ونفي في أقصى القطر وخارجه!.

واحتلت فرنسا بعد هذا المغرب الأقصى (مراكش) بمعاهدة أمضاها السلطان عبد الحفيظ، وسميت هذه المعاهدة: حماية، ولكن الأمة المراكشية لم تسكن لهذا الاحتلال، وقام فيها زعماء وأحزاب بجهاد، تعرضوا به للعسف

والتنكيل، وما زال الاحتلال الأجنبي يلاقي منهم الثورات والمجابهة بطلب الاستقلال إلى هذا العهد الأخير.

ونحن لا ندري متى بقيت فرنسا الضعيفة وحدها في شمال أفريقيا، والواقع أنها عندما انهزمت في أوائل الحرب، وقفت بجانبها في شمال أفريقيا ألمانيا، وعندما انهزمت ألمانيا، وقفت بجانبها الدول المتحالفة.

س ـ هل تنوون أن ترسلوا وفداً إلى أمريكا ولندن وموسكو يتكلم باسم جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية؟

ج ـ تود الجبهة لو أنها تتمكن من إرسال وفد إلى تلك العواصم، ولكن ظروفها المالية لا تساعدها على القيام بهذا العمل الذي يرجى نفعه، والحواجز ـ التي تقيمها حكومة الاحتلال حول شمال أفريقيا ـ تمنع من أن يصل إلى الجبهة مدد من تلك الشعوب، وإن كانوا يتلقون ما تقوم به الجبهة من جهاد في سبيل قضيتهم بارتياح ونشاط.

س ـ إلى الآن لم تحاولوا أن تبرزوا أي نشاط إلا نشاطكم في إرسال البرقيات لرئيس الوزارة في مصر ولندن.

ج ـ نشأت الجبهة منذ تسعة أشهر، وقامت بأعمال هي أقصى ما يمكن لجماعة تأخذ بالحزم، وتسير إلى هدفها في يقظة، أن تقوم به. ذلك أنها نبهت الجالية العربية، وكان كثير منهم في غفلة عن حقوق أوطانهم، وجمعت شملهم على المطالبة، ثم حررت مذكرات في أحوال تلك الأقطار الثلاثة: تونس، والجزائر، ومراكش، أشارت فيها إلى ما تقاسيه من اضطهاد وعدوان، وأخذت تتصل برؤساء الحكومات العربية، وفي مقدمتهم الحكومة المصرية، وتشرح لهم قضية شمال أفريقيا، ولم تدع فرصة تمر حتى تظهر فيها بخدمة

القضية، وبرقياتها الكثيرة التي أشرتم إليها في سؤالكم، ويعمل رجال الجبهة على الاتصال بكل الشخصيات الذين تهمهم قضايا العالم الإسلامي والعربي؛ كبعض زعماء الأحزاب في مصر وغيرها.

س ـ هل تعلقون على الجامعة العربية أملاً في حل قضية الشمال أفريقيا؟

ج ـ في جامعة الدول العربية رجال التقينا بهم، وعرفنا فيهم العناية بشؤون الشعوب العربية، والحرص على استقلالها سياسة وثقافة واقتصاداً، ووجدنا فيهم عطفاً على قضية شمال أفريقيا، وهم مقتنعون ـ فيما نفهم ـ بأن جامعة الدول العربية لا يتم تكوينها التكوين الذي يكسبها القوة والمهابة المنشودتين، حتى نرى الشعوب العربية في شمال أفريقيا متصلة بها اتصال الكف بالمعصم، ومساعدة لها مساعدة الجناح في الطيران للجناح.

فما عرفناه في رجال الجامعة، وما اشتمل عليه ميثاقها من أنها ستعنى بشؤون العرب قاطبة، بعثا في نفوسنا شيئاً غير قليل من الأمل في أن الجامعة ستجعل نصيباً من مجهوداتها لشعوب شمال أفريقيا، التي تنتظر أن ترى من الجامعة اتجاهاً خاصاً يزيدهم نشاطاً في حركاتهم الوطنية، وسعيهم في تأكيد الصلة بينهم وبين سائر الشعوب العربية.

أحمد الحصري

❑ ❑ ❑



نداء وبيان
من جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية(١)

لشمال أفريقيا: تونس، والجزائر، ومراكش صحائف يعرضها التاريخ مشرقة بالأعمال التي رفعت لواء الإسلام والعلم والمدنية، وقد أنبتت تلك الأقطار رجالاً كبرت هممهم، واشتدت عزائمهم، وأصبحوا مُثلاً عليا في الفتح العادل، والعلم الراسخ، والخلق الكامل، والسياسة الرشيدة، وما زالت تلك الأقطار تتمتع بحريتها، وتعتز بدينها، وتغتبط بمجد أسلافها، حتى هجم عليها بغاة الاستعمار من الفرنسيين، فغلبوها على أمرها، وعملوا على تبديل عزّتها ذلة، وكرامتها مهانة، وأصبحت لا ترى منهم إلا طغاة يسومونها سوء العذاب، ويعملون على أن يقلبوها من قوميتها العربية إلى الجنسية الفرنسية، ومن دين الإسلام إلى نصرانية محرفة، بعد أن حولوا كثيراً من مساجدها إلى كنائس وثكنات لجيوشهم، وحاربوا لغة القرآن الكريم بكل قسوة، ويبذلون ما استطاعوا في أن تعيش تلك الشعوب في جهل مظلم، وفقر مدقع، وتفرق لا يلتقي معه أخ مع أخ في تعاون على خير.

يفعلون هذا وقد كتموا أنفاسها، وجعلوا بينها وبين سائر البلاد ـ إلا بلاد فرنسا ـ سدوداً يصعب على أبنائها أن يقتحموها، وينفذوا منها إلى

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثالث من المجلد الثامن عشر الصادر في رمضان ١٣٦٤هـ ـ القاهرة.

مواطن يرفعون فيها أصواتهم بالشكوى، ويصفون تلك الكوارث التي يصبها الاحتلال الفرنسي على رؤوسهم صباحاً ومساء، ولكن أهالي تلك الأقطار، وهم يتجرعون مرارة الاحتلال الغاشم، لا يزدادون إلا شعوراً بحقوقهم الوطنية، وطموحاً إلى حياتهم الاستقلالية، ويأبون أن يعيشوا تحت راية أجنبية إباء لا يزال يدفعهم إلى السعي وراء حريتهم وسيادتهم بكل ما استطاعوا من قوة.

وقد يضيق هذا البيان عن ذكر جهادهم، وما كانوا يلاقونه من العسف منذ أنشب الاحتلال الفرنسي والإسباني مخالبه بأوطانهم، وها هم أولاء قد نهضوا اليوم للمطالبة بحقوقهم الوطنية والقومية والمالية، آخذين في مطالبتهم بالطرق المشروعة، معتمدين على قوة حقهم، والتضحية في سبيله بكل عزيز لديهم، ولا يضيع عمل من يجاهد في سبيل الحق، ولكن فرنسا ـ كإسبانيا ـ لا تتعرف في مخاطبة الشعوب الضعيفة إلا لغة النار والحديد، فلما رأتهم واقفين أمامها موقف المجد في جهاده، الباذل في سبيل حريته كل ما يعز عليه من نفس أو مال، لم تتريث أن أسرعت إلى ما عندها من قوة الطائرات والدبابات والمدافع في البر والبحر، وظلت ترسل على المستضعفين من الرجال والنساء والولدان وابلاً من مقذوفاته الساحقة، لا تأخذها بهم رأفة، ولا ترعى لمناصرتهم لها على أعدائها، ومحاربتهم بجانبها عهداً.

وإن ما ارتكبته هنالك من فظائع التنكيل والتقتيل، لمما زاد الوطنيين حماسة لقضيتهم، وقوى اتجاههم إلى العمل لتحرير أوطانهم، وقد عرف صدق عزيمتهم جاليات في مصر من أبناء تلك البلاد، فأنشؤوا جبهة تدعى: «جبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية»؛ لتكون عوناً لتلك الشعوب على بسط قضيتهم للعالم الإسلامي، وتتولى الدفاع عنها بيقظة وحزم، وتعمل لهز

العواطف النبيلة في نفوس الأمم الإسلامية؛ حتى يشدوا أزرنا في العمل لتحرير وإسعاد خمسة وعشرين مليوناً من العرب المسلمين، وإنقاذهم من الاندماج في الجنسية الفرنسية، وانقلابهم إلى الديانة النصرانية، وهما الغرضان اللذان تعمل لهما فرنسا ليلها ونهارها، كما علمت لهما إسبانيا في الأندلس من قبل.

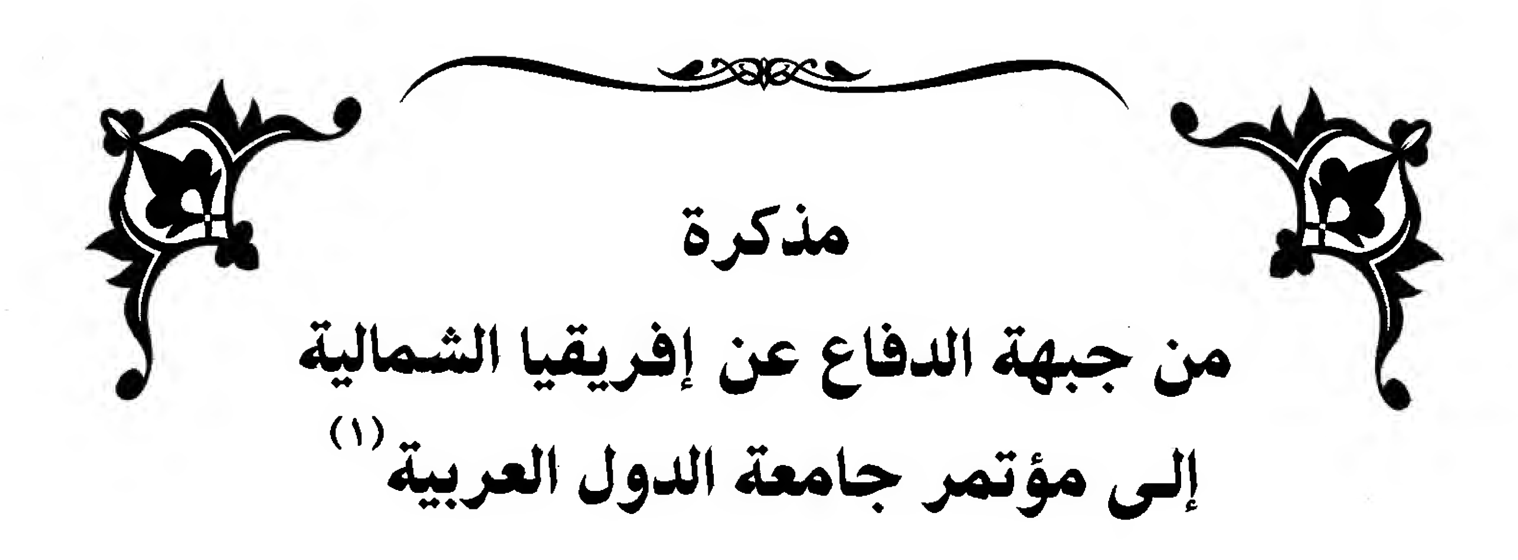
فالفرنسيون بشمال أفريقيا ـ كالإسبانيين ـ يسيئون إلى الإنسانية والعروبة والإسلام بالاعتداء على أموال تلك الشعوب وأعراضهم ودينهم، وتقتيل عشرات الآلاف منهم، واعتقال عشرات الآلاف من الذين قاموا يطالبون بحقوقهم، ويريدون أن يحتفظوا بكيانهم، ثم لا يدخر الفرنسيون وسعاً في العمل لسلخهم من العالم الإسلامي والعربي، وغمسهم في الجنسية الفرنسية.

فجبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية بمصر تؤمل من المسلمين في كل بقاع الأرض، أن يغيثوا إخوانهم في تلك البلاد، كلٌّ بما يستطيع. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. اللهم اشهد، فإننا قد بلّغنا.

رئيس الجبهة

محمّد الخضر حسين





مذكرة

من جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية إلى مؤتمر جامعة الدول العربية[1]

حضرة صاحب السعادة عبد الرحمن عزام بك الأمين العام لجامعة الدول العربية.

ترجو جبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية من معاليكم عرض هذه المذكرة الوجيزة على مؤتمر الجامعة الموقر، ولنا كبير الأمل في أن تحظى من أنظاره البعيدة المرمى بعناية ضافية، وهي:

«إن شعوب إفريقية الشمالية العربية: تونس، والجزائر، ومراكش، طالما قاست من الاحتلال الفرنسي ألواناً من الاعتداء على الأنفس والأعراض والدين والأموال، وطالما حاول الناهضون من رجالها تخفيف شيء من ذلك الاضطهاد الممقوت، فيوجهون الشكوى بعد الأخرى إلى فرنسا نفسها على أمل أن يجدوا من الفرنسيين من يحمل في صدره شفقة على الإنسانية المعذبة، فتخيب آمالهم، بل لا يجدون إلا من يعد شكواهم طعناً في سياسة الاحتلال، والطعن في تلك السياسة جناية تقابل بالعقوبة في غير رحمة.

وكثيراً ما يأخذ أولئك العرب غضبٌ من العسف الذي تغمرهم به فرنسا،

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن الرابع والخامس من المجلد الثامن عشر الصادران في شوال وذي القعدة ١٣٦٤هـ ـ القاهرة.

فينهضون لمكافحته بما في أيديهم من قوة، ويبذلون في سبيله دماءهم الغالية، ولا يبالون في كفاحهم ما تفعله بهم تلك الحكومة الباغية من تنكيل وتقتيل.

وأقرب كفاح دفعهم إليه دافع الغيرة على حريتهم المسلوبة، وحقوقهم المهضومة، هذه الثورات التي قاموا بها منذ أشهر، بعد أن أشعروا فرنسا بأن صبرهم على عدوانها قد نفد، وأنهم لا يرضون إلا أن يعيشوا كما تعيش الأمم ذات التاريخ المجيد في عزّة وكرامة.

كانت تلك الشعوب العربية تحسب أن انهزام الفرنسيين أمام الجيش الألماني، وابتلاءهم بسيطرة الأجنبي على بلادهم، وتجرّعهم غصص الإهانات في ديارهم، قد يذكرهم حال الشعوب التي يدوسون كرامتها بنعالهم، فيخففون من غلوائهم، ويعودون إلى رشدهم، ويقفون في مفاوضة أولئك العرب موقف الحريص على أن يتساوى الناس في الحرية تساويهم في التمتع بالهواء الطلق، وضياء الشمس، ولاسيما شعوباً ساقت منهم جيوشاً كثيرة إلى مواقع القتال، ويذلوا دماءهم في الدفاع عن بلادها، ولكن فرنسا نهضت بفضل الحلفاء من نكبتها، وبدل أن يكون لها في تلك النكبة موعظة، تتحول من عقليتها العتيقة إلى عقلية تحترم المنطق السليم، ولا تجاري الأهواء الجامحة بها إلى غير سبيل، عادت إلى ما عرفت به من معاملة تلك الشعوب معاملة من لم يعترف بأن لهم حقاً في الحياة.

ففرنسا الحديثة كفرنسا القديمة، تستأثر بخيرات شمال أفريقية، وتصدرها إلى أوطانها، وتدع رجال تلك الأقطار وولدانهم يتساقطون موتاً في الطرقات، حيث لا يجدون من القوت ما يسد رمقهم.

وفرنسا الحديثة استأنفت العمل لقلب جنسية أولئك العرب إلى جنسية

فرنسية، ونقلهم إلى دين غير دينهم، وإلجائهم إلى أن تكون اللغة الفرنسية لسانهم، حتى تقضي على اللغة العربية التي هي مظهر لعربيتهم، إلى غير هذا من وضع الضرائب الفادحة، وتضييق الخناق على الصحف العربية، والانتقام من الزعماء بالزجّ بهم في السجون والمعتقلات، وإقصائهم بالنفي إلى أماكن بعيدة، لا يدري أقوامهم كيف يعذبون فيها، أو كيف يموتون، ولولا خوف الإطالة، لضربنا الأمثال، وسقنا الشواهد على ما نقول.

والواقع أن جامعة الدول العربية في غنى عن الإسهاب في الحديث عن مساوئ الاحتلال الفرنسي، فحضرات أعضائها على اطلاع وافٍ وخبرة واسعة من فظاعة ذلك الاحتلال، وتفاقم شروره إلى حد لا يطاق. والذي نريد تذكير أعضاء الجامعة به، ووضعه تحت أنظارهم السديدة: هو أن تلك الشعوب العربية قد امتلأت غيظاً من استعباد فرنسا لها، وأصبحت تشعر بقلب رجل واحد أن لا خير لها في الحياة إلا أن تتخلص من ذلك الاحتلال الغاشم، وتقف في صفوف الأمم المستقلة جنباً لجنب.

وهذا الشعور النبيل الشامل، قد جعلهم مصممين على مواصلة الجهاد في هذه الغاية، فإما أن يعيشوا سعداء، وإما أن يموتوا شهداء.

شعرت هذه الشعوب بقوة حقها، فدفعتها الشهامة وإباية الضيم إلى الكفاح في سبيله على توفيق الله ـ جل شأنه ـ، وطامحة ببصرها إلى أن ترى من جامعة الدول العربية عملاً يقوي أملها، ويؤكد صلتها بالجامعة، ولاسيما حين استشيرت بما جاء في ملحق ميثاق الجامعة من أنها ستتجه بمعونتها إلى جميع الشعوب العربية، بما يصدر عن أصحاب المعالي: أمين الجامعة العام، ورؤساء الدول العربية، ومندوبيها في مؤتمر الجامعة من تصريحات

تنبئ بأن قضية شمال أفريقية قد حازت جانباً كبيراً من عنايتهم، وأنهم يعدون تلك الشعوب بمنزلة أحد الجناحين، حيث تمثل الأمة العربية بطائر يتحفز لأن ينهض ويحلق في عنان السماء.

وإننا لنقدر ظروف الجامعة قدرها، ولا يفوتنا العلم بما يجب أن نتدرع به من حكمة وتؤدة، وإذا رجونا منها أن تتجه إلى قضية شمال أفريقية بخطوات عملية، فإنا ندع رسم هذه الخطوات وتقديرها إلى يقظة رجالها المجاهدين، وحرصهم على النهوض بها نهضة تسعد بها الشعوب العربية قاطبة.

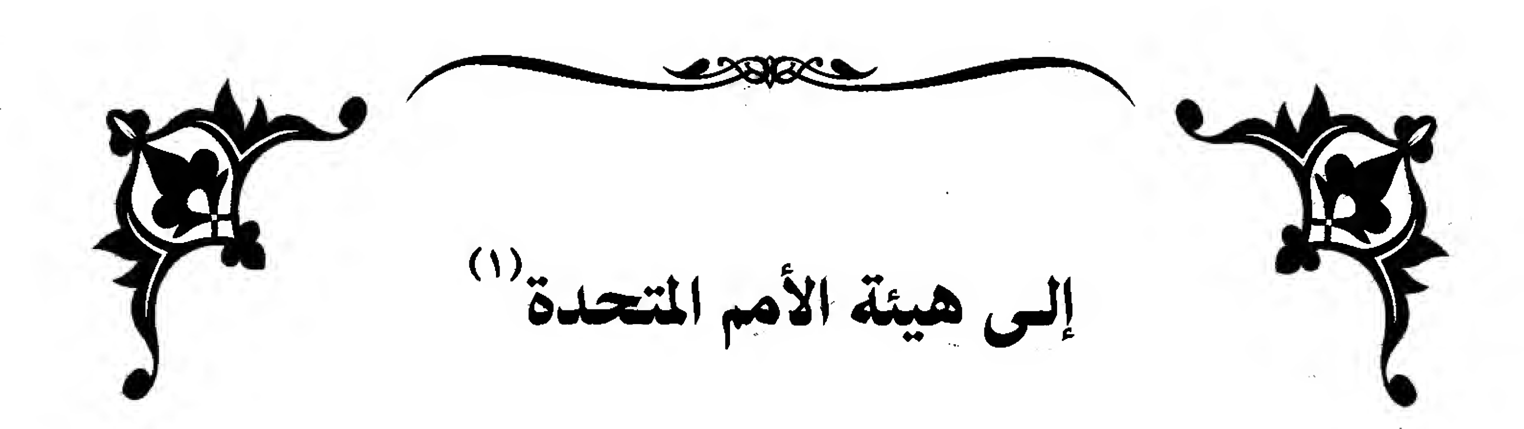
وترى الجبهة أن من الميسور الذي يعد خطوة أولى عملية تعيين طائفة من أبناء شمال أفريقية في إدارة الجامعة ولجانها، ومكتبي الدعاية في لندن وواشنطن. وفي القطر المصري شبّان ينتمون إلى تلك البلاد، وفيهم كفايات ثقافية وخلقية تؤهلهم لأن يشاركوا في العمل للقضية العربية على الخطط التي ترسمها الجامعة.

هذا ما نرجو من معاليكم عرضه على مؤتمر الجامعة، ولكم جزيل الشكر.

رئيس الجبهة

محمّد الخضر حسين





إلى هيئة الأمم المتحدة[1]

أرسلت جبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية إلى هيئة الأمم المتحدة في لندن البرقية الآتية:

احتلت فرنسا تونس والجزائر ومراكش منذ عشرات من السنين، وجرت في احتلالها على أفظع ما يتخيل من الاستبداد، وما زال سكانها، وهم وارثو الحضارة العربية الأندلسية يطالبون بحريتهم، فتزداد فرنسا إمعاناً في اضطهادهم، وتلجئهم إلى الثورة عقب الثورة، حتى جاءت هذه الحرب التي أذاقتها مرارة احتلال النازيين لبلادها، كان المنتظر أن تأخذ من ذلك عبرة، وتتخذ مع أولئك العرب الأبطال سياسة الإنصاف، ولكنها تمادت على سياستها القديمة الجائرة، فهم اليوم يلاقون من التقتيل والتنكيل والزج في السجون ما تتفتت له الأكباد، وتثور له نفوس أنصار الحرية غضباً.

وجبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية ترجو من عواطفكم الإنسانية، أن تشملوا شمال أفريقية بعناية، وتعملوا لتخليصه من الاستعباد الفرنسي،

---

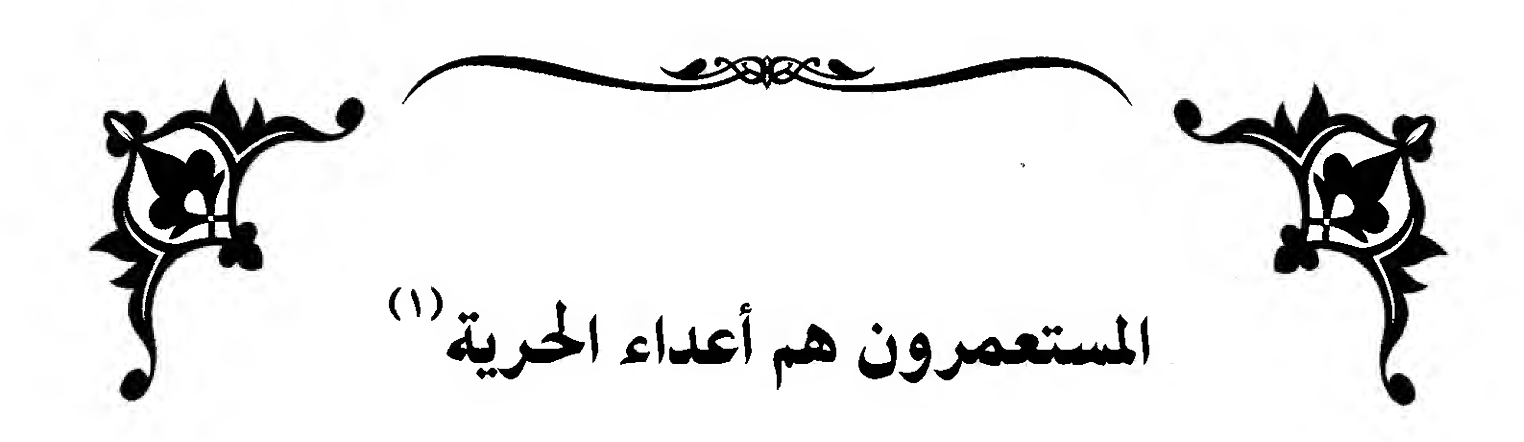
(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثامن من المجلد الثامن عشر الصادر في صفر ١٣٦٥هـ ـ القاهرة.

حتى يتمتع بحريته، ويتصرف في شـؤون نفسه، ويكون من الأيدي العاملة لتحقيق السلام الشامل لبني الإنسان قاطبة.

رئيس الجبهة

محمد الخضر حسين





المستعمرون هم أعداء الحرية[1]

الكلمة التي ألقاها سعادة عبد الرحمن عزام باشا في الحفلة التي أقامتها جبهة الدفاع عن شمال أفريقيا تكريماً للوفود العربية يوم ٥ أبريل سنة ١٩٤٦م.

حضرة صاحب السمو، حضرات الإخوان المحترمين!

طلب منا الأستاذ الورتلاني أن نستجيب دعوته لإلقاء كلمة بشأن المغرب، ولو طلب منا أكثر من الكلام، للبّينا. إن لي في قوم من المغرب إخواناً يعرفون أنني قد لبيت نداءهم في الماضي، وعرضت نفسي للموت مراراً في سبيل حريتهم، وإن ما ذكره حضرته، وما ذكره الخطباء عن المغرب لم يزدنا علماً، وإنما زادنا ألماً. إن المغرب كما قال أحد الإخوان: هو الجناح الأيسر للأمة العربية، وإن هذه الأمة لا تنهض، ولن تحلق في سماء رسالتها إلا إذا كان هذا الجناح سليماً.

إن الجامعة العربية منذ فجر تأسيسها لن تنسى أن خارجها نصف أبناء العروبة، وهو يشرئبون إليها بأعناقهم، ويرومون أن يتعاونوا معها، ولذلك

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثامن من المجلد الثامن عشر الصادر في صفر ١٣٦٥هـ ـ القاهرة.

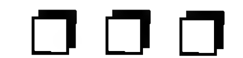
وضعت ملحقاً خاصاً بهم؛ للنظر في شؤونهم، ورعاية مصالحهم، ولم يوضع هذا الملحق عبثاً، وإن الأمة العربية لن ترضى أن يفرق بينها وبين أجزائها، وإنها لن تستطيع صبراً على هذه التفرقة التي تريد أن تفصل ما جمعه الله مدة تربو على ثلاثة عشر قرناً. وإذا كانت الجامعة قد أعربت للعالم أجمع أنها تقف في جانب الحرية أينما كانت، فإنها من باب الأولى أن تقف إلى جانب حرية المغرب المسلم، المغرب العربي، وكل محاولة لإخراج المغرب عن عقيدته وعن دينه وعن عروبته هي محاولة فاشلة، محاولة ضد إرادة الله، وضد الطبيعة التي استقرتها.

إننا حين نادينا بالحرية، ووقفنا إلى جانبها، لن نقصد خصومة قوم على وجه الخصوص، وإنما قصدنا خصوم الحرية أينما وجدوا.

والمستعمرون في الدنيا هم أعداء الحرية، فنحن أعداؤهم أينما كانوا؛ لأن الاستعمار يقتضي اضطراباً دائماً، وسلماً مزعزعاً، وإن الذين أقاموا الاستعمار أساؤوا إلى أممهم وإلى أنفسهم وإلى المدنية، لقد أقاموا نظريتهم على أن يكون الناس فريقين: محكومين إلى الأبد، وحاكمين مستغلين ظالمين إلى الأبد، وهذا يستلزم نزاعاً مستمراً بين الفريقين، ثم هو سبب خصام مستمر أيضاً بين المستعمرين أنفسهم، وما الحرب العالمية الأولى والحرب الثانية التي كادت تدمر الحضارة برمتها إلا من نتائج هذا الاستعمار، وإذا لم ينته مذهب الاستعمار من نفوس الساسة، فإن دمار هذا العالم قد يصبح في حيز الممكنات.

إننا حين نقاوم الاستعمار نريد إنقاذ أنفسنا والبشرية، بل ونريد أن نخلص المستعمرين من شر أنفسهم، والأمة العربية الجديدة القديمة، هي

أمة المستقبل، تقف بجانب الحرية، وتكافح ضد من يريد أن يجعل البشر فريقين، وإنها بذلك تؤدي واجبها نحو نفسها، ونحو البشرية جمعاء التي يجب أن تسود فيها المساواة ووحدة المصلحة: كلكم من آدم، وآدم من تراب. وإن أكرمكم عند الله أتقاكم.





أساليب الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا[1]

أقامت جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية بفندق الكونتننتال حفلة تكريماً للوفود العربية. وهذه كلمة رئيس الجبهة فضيلة الأستاذ السيد محمد الخضر حسين.

حضرة صاحب السمو، حضرات أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة والعزة!

أقدم لحضراتكم أجزل الشكر على ما تفضلتم به من إجابة دعوة جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية، وإذا أجبتم دعوة الجبهة، فإنما أجبتم دعوة خمسة وعشرين مليوناً من إخوانكم المغتبطين بعربيتهم وإسلامهم؛ فإن الجبهة تنطق بما في ضمائرهم إذا نطقت، وتعمل بما يوافق رغباتهم إذا عملت، ذلك أنها خبيرة بما يقاسونه من النوائب، عليمة بما يتقد بين جوانحهم من الحماسة، بصيرة بما صمموا عليه من العمل لتحرير أوطانهم. وقد حازت ـ بعد هذا ـ حسنَ ثقتهم بها، وكانت مناط آمالهم في خدمة قضيتهم بعزم

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن التاسع والعاشر من المجلد الثامن عشر الصادران في الربيعين ١٣٦٥هـ ـ القاهرة.

صارم، وثبات وإخلاص. وإذا احتفلت الجبهة بتكريم حضرات أعضاء الوفود العربية، فإنما هو تكريم من أولئك الملايين القاطنين بشمال أفريقية، فإنهم ـ وإن لم يكونوا حاضرين هذا الحفل بأجسامهم ـ، فهم حاضروه بقلوبهم المملوءة بإجلال هذه الوفود، وإخلاص الولاء لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول ـ حفظه الله ـ.

سادتي!

لست في حاجة إلى أن أذكر ما كانت عليه الأمة العربية من السيادة والعزة، ولا إلى ما كان لها من فضل في نشر العلوم والفنون والحضارة النقية الطاهرة، فكل هذا معروف عند أصدقاء العرب وخصومهم على سواء.

والذي أريد أن أقوله في صدر هذه الكلمة: إن الأمة العربية تنزع إلى الاستقلال بطبيعتها، وبمقتضى ما حفظه لها التاريخ الصحيح من شرف راسخ، ومجد فائق، وما كانت تسكن تحت سلطان الأجنبي في حال، بل تدافعه بقدر ما تستطيع من قوة.

وشعوب شمال أفريقية هم أعضاء من هذه الأمة المعروفة بالبطولة وإباء الضيم، وإذا تغلبت عليهم الحكومة الفرنسية بعد حروب وإباء من الدخول تحت سلطانها، فإنهم مازالوا يعملون للتخلص من هذا الاحتلال، ويجاهدون ما استطاعوا في سبيل حريتهم الكاملة، وليس من المعقول أن يناموا عن الجهاد، والاحتلال الفرنسي يذيقهم أشد العذاب في كل صباح ومساء، ولا أستطيع أن أتحدث في هذا المقام عن تلك الحالة المنكرة بتفصيل، ولكني أقول: إن الاحتلال الفرنسي يقوم على أغراض لم نرهم في يوم من الأيام عدلوا عن شيء منها، أو خففوا ولو قليلاً من وطأتها.

من أغراض ذلك الاحتلال: أن لا يترك الفرنسيون شيئاً من التصرف في شؤون البلاد بأيدي الوطنيين، بل يقبضون على زمام كل دائرة من دوائر الحكومة، ويتصرفون في شؤونها، داخلية كانت أم خارجية، صغيرة كانت أم كبيرة، فالمالية بأيديهم يتصرفون فيها مباشرة على حسب أهوائهم الاستعمارية، والتعليم تحت سيطرتهم يقفون به في دائرة أضيق من أُفحوص[1] قطاة، ومن بلغوا من أبناء شمال أفريقية في علم من العلوم؛ كالطب، والحقوق، فإنما هم الذين يرحلون إلى أوروبا، ويتعلمون على نفقاتهم الخاصة.

وأراني في غنى عن أن أقول: إنها تجري في سياستها على تمييز الأوروبي، وتفضيله على العربي الوطني في القضاء، والوظائف، على وجه تتبرأ منه الإنسانية، وينبذه العدل باليمين والشمال؛ فإن عدم تطبيق قاعدة المساواة بين الأوروبي والوطني طبيعية كل دولة مستعمرة، ويكفي هذا النوع من مساوئ الاحتلال الأجنبي شاهداً على أنهم إنما يريدون استعبادنا، والاستئثار بمنافع أوطاننا، لا مساعدتنا على التقدم في الحياة كما يزعمون، وهم يشعرون بأننا لسنا من البله إلى حد أن نغتر بهذا الزعم، والعرب الوطنيون في شمال أفريقية محرومون من حرية الاجتماع؛ لما تضعه حكومات الاحتلال من المراقبة وبث العيون بين الأفراد والهيئات.

ومن المعروف أن فرنسا تعمل لقطع الصلة بين المغرب والبلاد الشرقية؛ خشية أن يكون هذا الاتصال وسيلة لزيادة إيقاظ المغرب، وتشجيعه على

---

(١) الأفحوص: مجثم القطاة، وهو الموضع الذي تفحص التراب عنه؛ أي: تكشفه وتنحيه لتبيض فيه، والجمع: أفاحيص.

المطالبة بحقوقه المغصوبة.

وهم محرومون من حرية الصحافة، والصحيفة التي تنزع إلى شيء من الحرية تجد من استبداد الحكومة ومضايقتها ما يؤدي بها إلى الانقطاع.

ومن مساوئ الاحتلال الفرنسي: أولئك الفرنسيون الذين ينصبون في شمال أفريقية، ويعطون الأراضي الزراعية بالمجان، أو بما يشبه المجان، ويسمونهم: المعمّرين، ويكون لكل واحد منهم سلطان على مجاوريه من الوطنيين، فيرتكب في إيذائهم ما يشاء، دون أن يُسأل أمام حاكم فرنسي أو أهلي سؤال من يريد العدل في القضية.

وللحكومة الفرنسية بعد هذه الأغراض غرض آخر هو أشنع ما ترمي إليه سياستها، وهو إخراج شمال أفريقية من عربيته إلى الجنسية الفرنسية، وسلخه من الديانة الإسلامية إلى ديانة غير إسلامية، أو غير ديانة، وقد ملأنا المذكرات التي قدمناها إلى جامعة الدول العربية ودول الحلفاء بإقامة الشواهد على قصدها لهذا الغرض السيء، وسعيها بكل ما أمكنها من الوسائل الظاهرة أو الخفية.

هذه المظالم التي لا تتحملها أمة ذات تاريخ عامر بمظاهر العزة والسيادة، يلاقيها العرب بشمال أفريقية، وهم الذين يكونون الجناح الأيسر للعروبة كما يقول بعض الكتاب، ولا ينهض الطائر إلا بأن يتمتع بسلامة جناحية كليهما، فهم - بلا شك - لا يقيمون على هذه المظالم الشنيعة، ويؤثرون الموت في سبيل محاربتها على حياة منغصة بمرارتها، مكدرة بأقذارها.

أطلّ عليّ الموتُ من خللِ الضنا فآنستُ وجهَ الموت غير كئيب

ولو جسَّ أحشائي لخلت بنانَه وإن هال أقواماً بنانَ طبيب
فلا كان من عيش أرى فيه أمتي تساس بكفي غاشم وغريب[1]

تعمل تلك الشعوب لخلاصها، وهي معتمدة على نفسها، حتى تألفت جامعة الدول العربية، ارتاحت لها قلوبهم، وقويت آمالهم في أن تكون اليد المساعدة على تحريرهم، فأخذوا يتساءلون عنها، ويتواصون بالدعاية لها، ويبذلون كل مجهود في الاتصال بها.

ونحن المتصلون هنا بهيئة الجامعة الموقرة، عرفنا أن حضرات أعضائها الأجلاء قد أصبحوا على خبرة بحقيقة القضية المغربية، وأنهم مقتنعون بأن الاتحاد العربي لا يتم إلا أن تكون طرابلس وتونس والجزائر ومراكش منضمة إلى الجامعة، منفذة لقراراتها السياسية والثقافية والاقتصادية، وقد اتجهت الجامعة عندما ساعدتها الفرصة إلى العمل لقضية المغرب، وخطت في هذا السبيل خطوات نحمدها عليها، ونرجو أن تواصل هذه الخطوات بخطوات أوسع وأجدى.

وإذا مَثَّلنا شمال أفريقية بالجناح الأيسر للعروبة، فإنا نريد: طرابلس، وتونس، والجزائر، ومراكش، فيجب أن تكون هذه الأقطار الأربعة في نظر الجامعة العربية سواء، فأي اضطهاد يقع على قطر من هذه الأقطار يعدّ كسراً في ذلك الجناح.

وخلاصة ما نرمي إليه في هذه الكلمة: أن شعوب أفريقية قد نفد صبرها، ولم تتمالك أن أصبحت تلح في طلب استقلالها، وتتحفز للجهاد

(١) الأبيات من نظم صاحب الخطبة. انظر: ديوانه «خواطر الحياة».

في سبيله ما استطاعت، وليس ذلك البدوي الذي احتلت قبيلة ثقيف أرض قومه بأشد غيرة على قومه منهم إذ يقول:

ولا صلح ما دامت منـابر أرضـنا   يقوم عليهـا مـن ثقيـف خطيـبُ

والسلام عليكم ورحمة الله.

محمّد الخضر حسين

❐ ❐ ❐

مذكرة مرفوعة
من جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية
إلى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم
عبد العزيز آل سعود عند زيارته مصر (١)

إن فرنسا ـ يا صاحب الجلالة ـ هجمت على بلاد الجزائر منذ مئة وسبع عشرة سنة، ودافعها أهلها بحروب نظامية استمرت نحو سبع عشرة سنة، ولما تغلبت عليهم بكثرة الجند ووفرة السلاح، بسطت عليهم سلطانها، وانتزعت منهم جميع حقوقهم الحيوية والسياسية، بل اعتبرت ذلك القطر قطعة من فرنسا، وجعلت النظر في شؤونه يرجع إلى وزارة الداخلية بباريس، بالرغم من أن قوميته ولغته عربية، وأن دينه الإسلام.

ثم هجمت على البلاد التونسية منذ ست وستين سنة، وقدمت لأميرها محمد الصادق باي معاهدة وقع عليها مكرهاً، بين مدافع فاغرةٍ أفواهَها إلى القصر، وجنود مدجَّجين بالسلاح، ولم تقف عند هذه المعاهدة المغصوبة، بل قبضت على زمام الإدارة، ولم تدع كبيرة ولا صغيرة من شؤون البلاد إلا وكلت التصرف فيها إلى طاغية من الفرنسيين، وإذا ألقيت إلى بعض الوطنيين منصباً في الحكومة، فإنما هو عمل صوري، والحقيقة أن الفرنسيين لا يتركون للوطنيين في سياسة المملكة شيئاً من الأمر.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن التاسع والعاشر من المجلد الثامن عشر الصادران في الربيعين ١٤٦٥ هـ ـ القاهرة.

ثم هجمت على المغرب الأقصى (مراكش) منذ ثمان وثلاثين سنة، واحتلتها بمعاهدة اضطر السلطان عبد الحفيظ لتوقيعها، وتجاوزت حدود المعاهدة، وأخذت تفعل في البلاد ما فعلت في تونس من الاستبداد وتصريف شؤون البلاد، على قاعدة تثبيت قدم الاستعمار، وإيثار أبناء جلدتها بكل ما تجود به أرض ذلك القطر من خيرات.

لا يسع المقام لأن نبسط القول في اضطهاد فرنسا لأولئك العرب المسلمين، وعملها الليل والنهار لأن يعيشوا في فاقة وجهالة وتفريق كلمة، بل تعمل في غير مبالاة لإخراجهم من دينهم الإسلامي إلى ملّة غير إسلامية، ومن قوميتهم العربية إلى الجنسية الفرنسية، ذلك أنها تشعر بأن الثراء والعلم واتحاد الكلمة أساس الرقي إلى الحرية والعزة، وتشعر بأن الأمة التي تدين بالإسلام، وتستضيء بهدي القرآن لا تخضع إلا لسلطان يحترم ديانتها، ويسوسها بنظم شريعتها، ولا ترضى إلا أن تستعيد سيادتها، وتتمتع باستقلالها.

وعرب شمال أفريقيا ـ وإن وضعت فرنسا بينهم وبين الشرق حواجز، واتخذت كل ما استطاعت من وسيلة لقطعهم عن العالم الإسلامي ـ فإن بطولتهم واعتزازهم بسالف مجدهم لازالا ولن يزالا ينهضان بهم إلى المطالبة بحريتهم، واقتحام الثورات الدموية في سبيل هذا الطلب، لا يبالون ما تصبه عليهم فرنسا من عذاب التقتيل والتنكيل والزجّ في السجون.

وقد قدمت جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية إلى جامعة الدول العربية مذكرات أودعتها جانباً كبيراً من فظائع الاحتلال الفرنسي لتلك البلاد، وتلقى رجال الجامعة هذه المذكرات بعناية، وأصبحت قضية أولئك العرب الأبطال مشمولة بأنظارهم؛ كما تنبئ بذلك تصريحاتهم، ونرجو أن يكون لهذه

الخطوة النظرية خطوات عملية تشد أزر سكان تلك البلاد، وتزيدهم قوة على الجهاد في سبيل استقلالهم، والاحتفاظ بكيانهم المِلّي والقومي، وهذا ما سيكون بتوفيق الله، ولا يضيع حق وإن كان مغتصبه جباراً عنيداً، ومرت على اغتصابه عشـرات أو مئات من السـنين، متى كان من ورائه طالب يأبى الضيم، فيسهر الليل، وينفق كل مجهود في تخليصه.

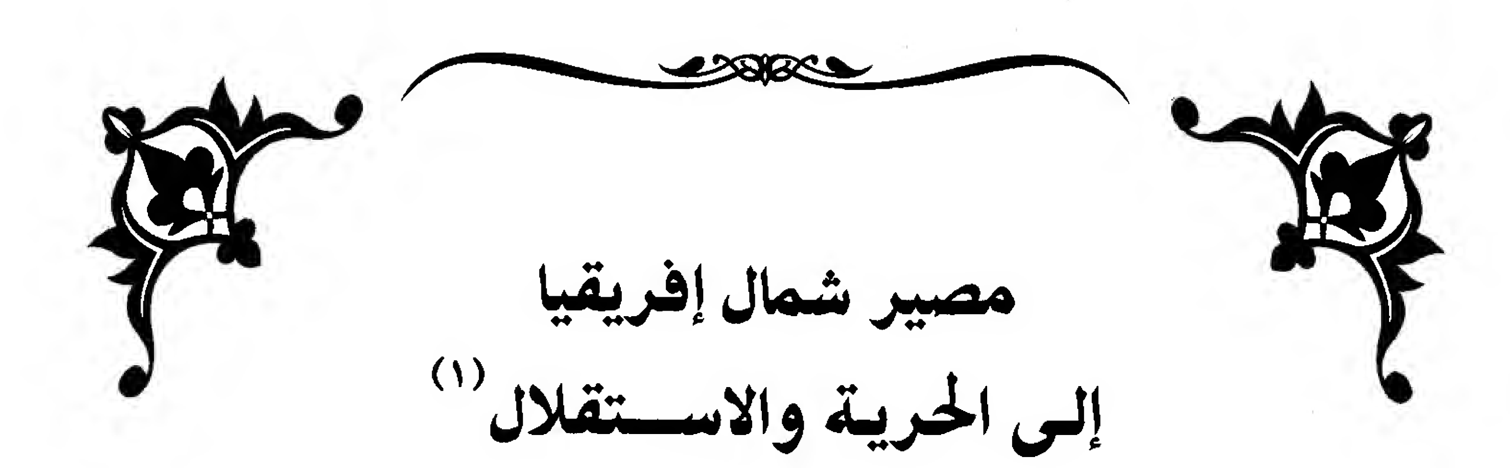
وبقاء شمال أفريقية في أيدي مغتصبيه منذ عشرات من السنين، لا تلقى تبعته على كاهل سكان تلك البلاد وحدهم، بل يسأل عنه كل عربي وكل مسـلم في اسـتطاعته أن يقوم بعمل، أو يجهر بقول يسـاعد على خلاص أولئك العرب المسـلمين من أغلال الاضطهاد التي يضعها الفرنسـيون في أعناقهم.

ولجبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية كبير الأمل في أن جلالتكم تشملون قضية تونس والجزائر ومراكش برعاية، وتبذلون ما استطعتم من المساعدة على إنقاذها من الاستعمار الفرنسي الذي يعمل لإذلال أهلها، وفصلهم عن القومية العربية، وإدماجهم في الجنسية الفرنسية، ويأخذ لتحقيق هذه الغاية الممزقة للوحدة العربية والجامعة الإسلامية بكل وسيلة يستطيعها من ترهيب أو ترغيب.

ولجبهة الدفاع كبير الأمل في أن ترى من جلالتكم اتجاهـاً إلى هذا القضية، يبشر بنجاحها، ويزيد المجاهدين داخل تلك الأقطار وخارجها إقداماً واطمئناناً إلى أنهم سينتصرون على الرغم من خصومهم الطغاة المبطلين.

رئيس جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية

محمّد الخضر حسين



مصير شمال إفريقيا إلى الحرية والاستقلال[1]

الكلمة التي ألقاها فضيلة الأستاذ رئيس التحرير في حفلة تكريم جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية للتونسيين اللاجئين إلى مصر.

حضرات أصحاب السعادة والفضيلة والفضل!

أقدم لكم خالص الشكر على ما تفضلتم به من إجابة دعوة الجبهة، وإجابةُ دعوتها إكرام لأمة لا تقل عن خمسة وعشرين مليوناً من العرب المسلمين، خصوصاً أن حضرات المحتفل بهم من الشبان الذين كانوا يعملون للقضية التونسية، وأصبحوا في نظر الحكومة المحتلة من المجرمين السياسيين، وتكريم العاملين ـ أيها السادة ـ معروف عند من يقدر الأعمال المحفوفة بالأخطار قدرها، فهذا عمر بن الخطاب ﷺ كرّم مجاهداً في شخص ابنته؛ إذ زادها في العطاء، وقال: إن أباها قد فتح حصناً، وأقامت حكومة القيروان لأسد بن الفرات يوم خروجه على رأس الجيش الذي فتح صقلية احتفالاً باهراً، وكان هذا اليوم ـ كما قال المؤرخون ـ يوماً مشهوداً.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزءان الحادي عشر والثاني عشر من المجلد الثامن عشر الصادران في الجمادين ١٣٦٥ ـ القاهرة.

أيها السادة!

أُعطينا سيادةً عِشْنا في ظلالها أحقاباً، وظن بعض أسلافنا أن السيادة إذا مدت أطنابها في أمة، بقيت فيها ما بقي الليل والنهار، فتمادوا في غفلتهم، ولم يخطر على بالهم أن من وراء البحار أمماً استيقظت لوسائل القوة والغلبة، وأنها تترقب الفرصة للهجوم على أوطاننا، ووضع يدها فوق رؤوسنا.

هجموا على أوطاننا ونحن في غفلة عما بيتوه لنا من كيد وعسف، ولكن ما غرز في فِطر شعوبنا من إباية الضيم، والطموح إلى العزّة، نهض بهم إلى أن يدافعوا العدو الهاجم ما استطاعوا، مفضلين الموت في سبيل دفاعه عن الحياة تحت سيطرته، كما وقع في الجزائر وتونس ومراكش وطرابلس، وإذا فاتهم أن يطردوا العدو من بلادهم، فإنهم ادخروا ما بين أسفار التاريخ صحائف غراء تشهد لهم بأنهم يعافون الذلة، ويأبون الضيم، وقد كان لأبنائهم وأحفادهم في تلك الصحائف عبرة، فنشؤوا يتميزون غيظاً من الاحتلال الفرنسي والإسباني والإيطالي، وطالما اندفعوا لمكافحته وهو يعلمون أن ليس لهم من قوة مادية تساوي أو تقارب قوته، وإنما يعلمون أن لهم قوة من الحق، إن لم تنتصر على قوته المبطلة اليوم، فستنتصر عليها غداً، «وإن غداً لناظره قريب».

وإذا فنيت أمة مستضعفة تحت أقدام الغاصب القوي، فلأنها انطوت على جبن، واستسلمت إلى اليأس، فمدت إليه أعناقها خاضعة، ولا عاقبة لأمة سكنت تحت نير الاستعباد إلا أن تضمحل وتفنى، ولاسيما غاصباً يعمل لسلخها عن قوميتها ودينها كما تفعل فرنسا في شمال أفريقية، ولكن الأمة

المغربية عرفت لأول احتلال الأجنبي لبلادها أنه لا يرعى عهداً، ولا يحمل بين جنبيه إلا قسوة، فجعلت نصب أعينها يوماً للخلاص منه، ولم يجد الجبن ولا اليأس إلى قلوبها من سبيل، واستمرت تناهضه بالكفاح عقب الكفاح، وهو يلجأ إلى النار والحديد، ويُجلب عن الفئة القليلة منها بخيله ورَجِله، ومدافعه وطيرانه من البر والبحر.

لم يجبن أولئك الذين لاقوا الصدمة الأولى من الاحتلال، وسار على أثرهم أبناؤهم لهذا العهد، يجاهدون بأقلامهم وأموالهم ونفوسهم، ولا يبالون ما يلاقونه من قتل وتنكيل، وها هي أنباء الثورات بالجزائر ومراكش وتونس تخترق الحواجز التي تضعها فرنسا حول البلاد، وتصل إلى الشرق، فتغمر أنديته، وتشتعل لها قلوب أنصار الحرية غضباً.

لم يكن ما تقاسيه تلك البلاد من مرارة الاحتلال معروفاً في الشرق؛ للسدود التي يقيمها المحتلون، وللمساعي التي يبذلونها في أن تبقى مكتومة، لا يتناولها كاتب ولا خطيب، وأذكر أني جئت إلى الشام قبل الحرب العالمية الأولى، وأردت أن أشغل القلم ببسط القضية المغربية في الصحف، فوجدت لقنصل فرنسا يومئذ تدخلاً ممقوتاً جعل المجال في عيني أضيق من مفحص قطاة، حتى جرى على اللسان في هذا الحال الأبيات الآتية:

بين الجوانح همّةٌ	تسمو إلى أمد بعيدِ
نهضت كما تبغي العلا	والعزم كالسيف الفريد
أدمى فؤادي أن أرى الأ	قلام ترسف في قيود
وأرى سياسة أمتي	في قبضة الخصم العنيدِ

فهجــرت قومــاً كنــت فــي	أنظـــارهم بيـــت القـــصيدِ
وحـــسبت هـــذا الـــشرق لـــم	يبـــرح علـــى عهـــد الرشـــيد
يـــسع الجهـــود إذا تـــضا	يقـــت الـــبلاد علـــى الجهـــود
ويقـــــول يـــــوم أبثّـــــه	بعـض الأسـى هـل مـن مزيـد
فـــإذا المجـــال كأنـــه	مـــن ضـــيقه خلـــق الوليـــد

والواقع ـ أيها السادة ـ أن أبناء الغرب (الأوربيين) يعملون للاستعمار كل على قدر طاقته، فيجب أن يكون لكل واحد منا نصيب من مكافحة هذا الاستعمار، وقضايا البلاد العربية السياسية بعيدة الغور، واسعة ما بين الأطراف، فلا يرجى لها نجاح إلا أن تتضافر عليها الجهود، وإذا تحقق الإخلاص ونقاء الضمير وصفاء الفكر، كانت الهيئات ـ وإن تعددت ـ بمنزلة هيئة واحدة تسير في اتجاه واحد، وتعمل لغاية معينة.

وأبناء شمال أفريقيا يكافحون اليوم معتمدين في كفاحهم على رغبتهم في الموت، واثقين من أن الله ـ عزّ سلطانه ـ في تأييدهم، فإنه يحق الحق إذا اتجهت الهمم إلى نصرته، ويمحق الباطل إذا نهض أولو العزم لإماطته عن أرضهم، ويرجون من هذا أن تعنى جامعة الدول العربية بقضيتهم؛ فإن شعورهم بأن الجامعة الموقرة تعرف آلامهم، وتحرص على تحقيق آمالهم، يزيدهم قوة وإقداماً وثباتاً.

وإنا على ثقة من أن رجال الجامعة يحملون في صدورهم قلوباً ملؤها الحماسة لقضية أفريقية العربية، وقد كان سعادة أمين سرها العام يجاهد في سبيل القضايا العربية والإسلامية من قبل أن تتألف الجامعة، أو يقع

التفكير في تأليفها.

ولا ننسى أن الجامعة قد خطت في قضية شمال أفريقية خطوات تلقيناها بالشكر من صميم أفئدتنا، ولنا طموح إلى أن تواصل هذه الخطوات بخطوات أوسع كلما ساعدتها الظروف، والظروف تتغير صباحاً ومساءً، ولا أبرح موقفي هذا حتى أقدم شكري الجزيل إلى الصحافة المصرية؛ فإنها أفسحت صدرها لنشر ما يتعلق بقضية شمال أفريقية، واحتضنتها كما احتضنت قضايا الشعوب العربية في الشرق.

وإذا كانت القضية المغربية قد لقيت من الجامعة اهتماماً بالغاً تحت رعاية حضرة صاحب الجلالة مولانا ملك مصر المعظم فاروق الأول ـ حفظه الله ـ، ولقيت من الصحف العربية في مصر وغير مصر صدوراً فسيحة، وعاطفة مهذبة، ثم أقبل نزلاء مصر من تلك الأقطار على خدمة قضيتهم بدعاية صادقة وحكمة، فإن مصير تلك البلاد إلى حرية وطمأنينة تساعدها على أن يكون لها حظ وافر في تقرير السلام العالمي الذي تلهج به الدول المتحدة في كل مؤتمر يعقد، أو خطبة تلقى. والسلام عليكم ورحمة الله.

محمّد الخضر حسين

□ □ □



الجهاد لإفريقيا الشمالية[1]

الكلمة التي افتتح بها فضيلة رئيس التحرير الحفلة التي أقامتها جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية في دار الاتحاد العربي.

أحييكم أطيب التحية، وأقدم لكم خالص الشكر على تفضلكم بتلبية دعوة الجبهة التي تجاهد في قضية شمال أفريقية، مغتبطة بأنها تعمل في ميدان من الحرية فسيح، مؤيدة برجال يقدرون حرية الشعوب قدرها، تغتبط الجبهة بأنها تعمل في صف دول عربية تطمح إلى العزة، وتسير إليها في حكمة وعزم، وتغتبط الجبهة بأنها تعمل وهي محفوفة بصحف سيارة تعطف على قضية المغرب، وتوسع صدرها لنشر ما تقدم لها من مذكرات وبرقيات ومقالات تدافع بها عن هذه القضية.

وقد أقامت الجبهة هذه الحفلة اعترافاً بفضل جامعة الدول العربية؛ حيث احتضنت هذه القضية، وأنزلتها المنزل اللائق بها من الأهمية، واعترافاً بفضل الصحافة التي تؤازرها في جهادنا انتصاراً للحرية والعدل على الاستبداد

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن الثالث والرابع من المجلد التاسع عشر الصادران في رمضان وشوال ١٣٦٥هـ ـ القاهرة.

والبغي، وتفاضل الصحف على قدر مكافحتها للباطل، ومناصرتها للحق.

سادتي!

إن في شمال أفريقيا ما لا يقل عن خمسة وعشرين مليوناً من العرب المسلمين، يقاسون من الاحتلال الفرنسي والإسباني أسوأ الاضطهاد، وقد تحدثنا وأشبعنا الحديث في مواقف كثيرة عن ألوان ذلك الاضطهاد، علاوة على ما تنشره الصحف العربية والأجنبية من الحوادث التي تتجدد يوماً فيوماً، وقد أصبح الرأي العام في مصر وغير مصر على خبرة مما تفعله تلك السياسة الجائرة من إرهاق لا تحتمله أمة تقلبت في الحضارة أحقاباً، وعرفت حقوقها معرفة الغيور عليها، والمتحفز للدفاع غير مبال بالموت في سبيلها، تلك هي أمة المغرب.

وكنت وقفت منذ أشهر بل أيام موقفاً كموقفي هذا شاكراً لجامعة الدول العربية الموقرة اتجاهها إلى قضية شمال أفريقيا بجانب من العطف، ورجوت منها باسم أولئك الملايين من العرب أن تتجه إلى قضيتهم اتجاهاً يدلهم على أن الجامعة مجدة في مناصرتهم، ومتأهبة للمعونة على تحريرهم.

وأقف اليوم شاكراً للجامعة قرارها الذي أصدرته في هذه الدورة الأخيرة، ومبلغاً لها شكر أولئك المجاهدين وارتياحهم لهذه الهمة الحازمة.

ولا يخالطنا ريب في أن هذا القرار الموفق سيكون له أثر عظيم في تأكيد عزم أولئك العرب، وتثبيت أقدامهم في العمل لاستقلالهم، كما أن جبهة الدفاع قد ازدادت بهذا القرار نشاطاً على نشاطها، وأصبحت تشعر بأنها تعمل في ظل جامعة دولية عربية غيورة على حرية شعوبها، راغبة في أن تكون لها في بناء السلام العالمي أعمال مشهورة.

وبهذه المناسبة أقول: إن جبهة الدفاع قد رسمت لنفسها غاية رأتها جديرة بحبها، وها هي تعمل لتحرير تلك البلاد: تونس، والجزائر، ومراكش، تحريراً لا يبقى لأجنبي عليها من سبيل، والجبهة قد اختارت أن تعمل في الشرق باسم الأمة المغربية التي تضم تحت جناحيها الشعوب الثلاثة، وهي حريصة على أن تتصل بزعماء الأحزاب القائمة في تلك البلاد، وبغير الزعماء من العاملين المستقلين، وليسوا بقليل؛ إذ الجبهة تقدر جهاد أولئك الزعماء أو العاملين المستقلين، وتراه هو الدعاية التي يقوم عليها صرح الاستقلال.

سادتي!

قررت جامعة الدول العربية العمل لاستقلال تونس والجزائر ومراكش، وأهم وسيلة إلى هذه الغاية النبيلة أن تكون الصلة بينها وبين المغرب قوية ثابتة؛ أعني: الصلة التي تجعل الجامعة تطلع على كل ما يحدث في الغرب يوماً فيوماً، وتجعل المغرب يعرف الخطوات التي تقدمت بها الجامعة في العمل لاستقلالها خطوة فخطوة، والنظر في إيجاد هذه الصلة ووسائل قوتها موكول بالطبيعة إلى مجلس الجامعة، ولنذكر على وجه المثال ما يصح أن يكون في مقدمة أعمال المجلس الموقر، وهو أن الفرنسيين يتقلبون في البلاد العربية، ويدخلون منها كل مدخل، دون أن يعترضهم أدنى عائق، ونرى الحكومات العربية تسمح لفرنسا أن تنشئ في بلادها مؤسسات باسم العلم، أو الرفق بالإنسانية، وكانت فرنسا ولا تزال تعين سفراء من أبناء جنسها في البلاد العربية.

أذكر هذا وأقول: إن من حق الدول العربية أن تعمل لفتح أبواب الرحلة

إلى تونس والجزائر ومراكش؛ بحيث تكون المواصلات بين العرب في الشرق والعرب في الغرب دائمة منتظمة، ومن حقها أن تعمل أو تساعد على أن يكون هناك مؤسسات ثقافية أو صحية أو اقتصادية تضاهي أمثالها من المؤسسات الفرنسية في البلاد العربية الشرقية، ومن حقها أن تعين في المغرب سفراء من رعاياها المخلصين.

يمثل بعض الخطباء أو الكتاب العالم العربي بطائر قلبه مصر، وله جناح في الشرق، وجناح في الغرب. ومن الواضح الجلي أن الجناح الشرقي لا يكون متصلاً بالقلب إلا إذا بقيت فلسطين عربية شعباً وحكومة، وأن الجناح الغربي لا يكون متصلاً بالقلب كذلك إلا إذا بقيت طرابلس الكبرى عربية حكومة وشعباً، أما إذا ابتلي هذان القطران بوضع غير عربي؛ فإن هذا الطائر يبقى مهيض الجناحين، لا يستطيع أن يحلق في الجو، ويصعد إلى سماء العزة والسيادة.

ولم يزل بين جوانحنا أمل في أن جامعة الأمم المتحدة تذعن إلى أن العصر الذي يدعى فيه إلى السلام العالمي هو عصر المنطق والحجة، لا عصر التخاطب بلغة النار والحديد، وتذعن إلى أن الحرية من حقوق الإنسانية على اختلاف أجناسها ومللها، وتكون على ذكر من أن السلام العالمي لا يتحقق ما دامت ملايين من الأمة العربية تقاسي من الاحتلال الفرنسي والإسباني ألواناً من الاضطهاد الذي لا يطاق.

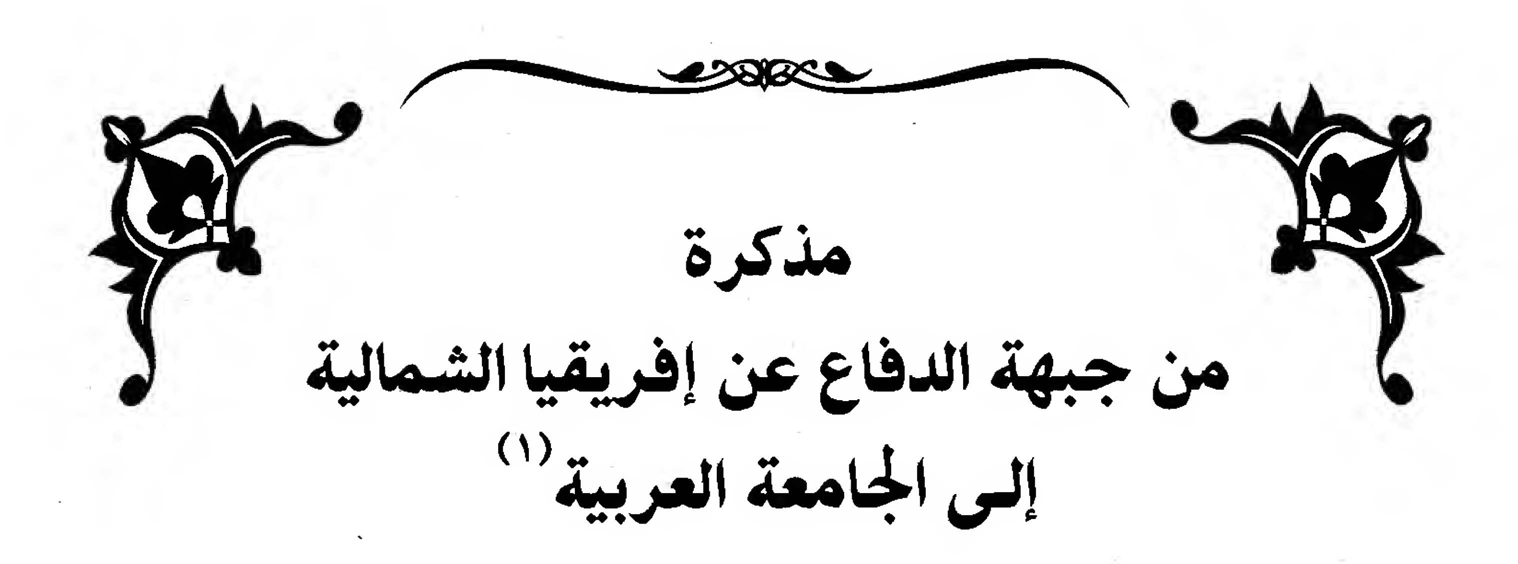
وإذا كانت الدول القوية قد أذعنت إلى الحقائق، وعرفت أن مراعاتها أمر لابد منه، لم نشك في أنها ستقف موقف المرتاح لقرار جامعة الدول العربية في استقلال تونس والجزائر ومراكش، وتسبق التاريخ بتمجيد أولئك

الأبطال الذين يجاهدون في سبيل حريتهم واستقلالهم، مع ما يلاقونه من عذاب وتنكيل.

وأختم كلمتي هذه بتوجيه شكر خاص إلى سعادة الأمين العام لجامعة الدول العربية عبد الرحمن عزام باشا على ما يبذله من الجهد في قضية شمال أفريقيا، وهو ـ بلا شك ـ إنما يعمل بالروح الذي استمده من رغبة حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم (فاروق الأول) ـ حفظه الله ـ.

محمّد الخضر حسين





مذكرة
من جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية
إلى الجامعة العربية[1]

حضرة صاحب المعالي عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية!

بعد تقديم أطيب التحية:

بدا لمجلس جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية اقتراح رغبوا إليّ أن أعرضه على معاليكم للنظر فيه، فإذا آنستم فيه خيراً للقضية العربية عامة، وقضية شمال أفريقيا خاصة، تفضلتم فعرضتموه على مجلس جامعة الدول العربية، لعله يرى الاقتراح جاء في الوقت المناسب لقوله، وهو: أن الجامعة قد اتجهت إلى ما كنا نؤمله منها، بل يؤمله العالم العربي بأجمعه؛ من العمل لتحرير الأوطان العربية بشمال أفريقيا، وأصدرت قرارها الذي اهتزت له قلوب الأمم العربية ارتياحاً، وازداد به الرجال العاملون لخلاص المغرب عزماً على المضي في سبيلهم، وعرفوا أن انضمامهم إلى جامعة الأمة العربية يسرع إلى قضيتهم بنجاح فوق النجاح الذي ينتظرونه من عملهم في داخل أوطانهم.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن الخامس والسادس من المجلد التاسع عشر الصادران في ذي القعدة وذي الحجة ١٣٦٥هـ ـ القاهرة.

فهم ـ بعد هذا القرار الموفق ـ يرون أن الجامعة تستطيع أن تعمل لقضيتهم في طريقة منتظمة، وحجج صادقة، ومن الوسائل التي تسهل عليها تحقيق هذه المهمة الكبيرة: أن يكونوا أعواناً للجامعة على جهادها، وطريقة هذا التعاون إنما يكون بعقد صلة محكمة بين الجامعة وتلك الشعوب؛ بحيث تطلع الجامعة على ما يحدث بتلك الأوطان من ضروب الاضطهاد، ومكافحتهم له يوماً فيوماً، وتعرف تلك الشعوب كيف تسير الجامعة في قضيتهم خطوة فخطوة، وعقد هذه الصلة موكول بالطبيعة إلى سياسة الجامعة ورأيها الحكيم، وهذا لا يمنعنا من أن نضع أمامها رأياً لعقد هذه الصلة الضرورية لخدمة القضية المغربية، هو أن جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية قد اختير أعضاؤها من الجاليات التونسية والجزائرية والمراكشية، ومن بينهم أساتذة في الأزهر الشريف، وفي الجامعة، وفيهم دكاترة ومحامون، وطائفة من كبار التجار الأمناء، فهي هيئة يمكن للجامعة أن تفسح لها طريق الاتصال بها، وتستعين بها على تعرف أحوال تلك البلاد في القديم والحديث.

واتصال الجبهة بالجامعة يأتي بثمرته العملية فيما يبدو لنا متى سمحت الجامعة بتخصيص مكتب لإدارة الشؤون المتعلقة بشمال أفريقية، وكان في العاملين بهذا المكتب من تطمئن الجبهة لكفايته وحزمه وأمانته، وفيما نعتقد أن مجلس الجامعة يقدر الجبهة التي قامت منذ سنتين تناضل عن قضية خمسة وعشرين مليوناً من العرب، وقد منحوها ثقتهم، وارتضوها لساناً يعبر عن أمانيهم، فمن القريب جداً أن يتقبل المجلس هذا الاقتراح، وفي قبوله معونة على أن يكون جميع ما تحتاج إليه الجامعة من مقتضيات الكفاح عن القضية المغربية تحت يدها، فتتناوله وهي على ثقة من صحته، سواء ما يتعلق

بعهودها الماضية، أو عهودها القريبة والحاضرة.

هذا اقتراح الجبهة، نعرضه على المجلس الموقر مؤملين النظر إليه بعناية ولكم جزيل الشكر. وتفضلوا بقبول أسمى التحية وعظيم الاحترام.

رئيس الجبهة

محمد الخضر حسين



ألف قتيل مراكشي في الدار البيضاء
تجريد الجنود المراكشيين والشرطة من سلاحهم[1]

وردت أنباء مقتضبة من مراكش عن اعتداء همجي فظيع قام به سلاح السنغاليين المشاة في الجيش الفرنسي بالدار البيضاء؛ حيث هجموا بالأسلحة السريعة الفتاكة على الأهالي العزل بسبب غضب الأهالي من اعتداء الجنود على أحد المنازل المغربية. وعلى أثر ذلك بعثت جبهة الدفاع عن شمال أفريقيا ببرقية إلى الأستاذ المكي الناصري رئيس حزب الوحدة المغربية الموحدة الآن في طنجة، تستفسر فيها عن هذه المجزرة، وعن فكرة الخلافة التي أثيرت بمناسبة زيارة جلالة ملك مراكش لطنجة، فتلقت منه الرد التالي:

«إن حوادث الدار البيضاء التي وقعت في ٧ أبريل، قد أثيرت لتهييج الرأي العام المراكشي. وقد ذهب ضحيتها ألف قتيل، كما جرح مئتان كلهم مراكشيون، قتلوا على أيدي مشاة الجيش السنغالي الفرنسي، أما المعتدون، فقد مات منهم ثلاثة، وفقد اثنان، والباعث لهذه الحوادث هو قصد الاعتداء على منزل مراكشي. أما السلطات الفرنسية، فبدلاً من أن تتدخل حالاً لمنع

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن السابع والثامن من المجلد التاسع عشر الصادران في محرم وصفر ١٣٦٦هـ ـ القاهرة.

هذه المجزرة، فقد جردت الجنود المراكشيين ورجال الشرطة المراكشيين من سلاحهم.

«وبونيفاس الذي كان بطل حوادث سنة ١٩٤٤م الدامية، وهو رئيس ناحية الدار البيضاء الآن، هو نفسه بطل هذا الحادث الأخير».

«أما عن سفر جلالة الملك لطنجة، فقد بذلت فرنسا كل ما يمكنها من جهود للحيلولة دون هذا السفر، فلما فشلت في منعه، حاولت إثارة قلاقل في طنجة، ولكن جلالة الملك أذاع بلاغاً دعا فيه الشعب إلى الاحتفاظ بالهدوء.

وبحمد الله تمت الزيارة من غير حادث بفضل امتثال الشعب لأمر جلالته، وبفضل حسن نية العناصر المحايدة، والبوليس الدولي.

أما فكرة الخلافة، فليس لها أي أساس من الصحة، بل بالعكس، إن ملكنا يتجه إلى الجامعة العربية، وفي خطبة الجمعة عِندما أمّ المسلمين بنفسه دعا لملوك الدول العربية ورؤسائها، وكل معلومات مخالفة لهذه هي مناورات فرنسية».

وقد تلقت الجبهة التفاصيل الآتية منه أيضاً:

على أثر حوادث الدار البيضاء الدامية، وقع إضراب عام في جميع أنحاء البلاد، وشارك فيه كل عناصر الشعب وطبقاته، كما قامت مظاهرات في طنجة على أثر خطاب حماسي ألقاه الأستاذ المكي الناصري رئيس حزب الوحدة المغربية؛ حيث أخذ المتظاهرون البالغ عددهم نحو عشرين ألفاً يطوفون بشوارع المدينة.

❑ ❑ ❑



لائحة المؤتمر الوطني التونسي(١)

انعقد بتونس في ليلة السابع والعشرين من رمضان ١٣١٦هـ ـ الموافق ٢٣ أغسطس سنة ١٩٤٦م مؤتمر وطني اشترك فيه زعماء الأحزاب، والمشتغلون في خدمة القضية التونسية، بل اشترك فيه كثير من كبار الموظفين والمدنيين بجامع الزيتونة، وأصدروا لائحة بإلغاء الحماية التونسية، واعتبار تونس وطناً مستقلاً استقلالاً تاماً، ونص هذه اللائحة:

إن المؤتمر التونسي المنعقد في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٦م بعد ما درس حالة البلاد السياسية، واستمع لمختلف الخطباء، صادقَ بالإجماع على العريضة التالية:

حيث إن البلاد التونسية قبل سنة ١٨٨١م كانت دولة تتمتع بسيادتها التامة، ومرتبطة مع الخلافة العثمانية بعلائق دينية أكثر منها سياسية.

وحيث إن سيادة البلاد التونسية معترف بها من مجموع الدول، وقد أيدتها المعاهدات مع الدول الأجنبية.

وحيث إن فرنسا التي كانت تؤيد قضية استقلال البلاد التونسية لدى

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن التاسع والعاشر من المجلد التاسع عشر الصادران في الربيعين ١٣٦٦هـ ـ القاهرة.

الحكومة العثمانية، قد فرضت على تونس معاهدة وقع المشير الصادق باي تحت الضغط، ولم يصادق عليها الشعب.

وحيث إن معاهدة «باردو» لم تكن لتفصل البلاد التونسية على المجموع الدولي، ولم تلغ سيادتها الخارجية والداخلية.

وحيث إن الحماية استحالت بعد مضي ٦٥ سنة إلى نظام استغلال استعماري يجرد الحامي المحمي عن سيادته، ومن خيراته تجريداً منظماً، في حين أن مفهوم معاهدة «باردو»، واتفاقية المرسى، ومنطوقهما يقضيان بأن تكون الحماية نظاماً وقتياً شبيهاً بوصاية بسيطة.

وحيث إن الدولة الحامية لم تلتزم حدود سلطة المراقبة، وحلت محل الدولة المحمية في مباشرة الحكم والتصرف في الشؤون العامة.

وحيث إن السلطة الفرنسية قد استحوذت على السلطة التشريعية التي هي حق خاص لسمو الباي، حتى أصبح حضرته شبيهاً بموظف شرفي سام مضغوط على حريته الشخصية، كما أن وزراء الدولة الذين نزلوا بهم إلى لقب وزراء سمو الباي، صاروا مجرد شخصيات لتزيين المحافل، وكما أن العمال أصبحوا أعواناً ينفذون أمر المراقبين المدنيين، وكذلك نزعت في جميع الميادين الأخرى سلطات جميع الموظفين التونسيين، وأسندتها لموظفين فرنسيين لم تكن خبرتهم ولا نزاهتهم في غالب الأحيان سالمتين من الطعن.

وحيث إن فرنسا التي التزمت علانية بحماية شخص الباي وعائلته قد خرقت المعاهدة مرة أخرى، فخلعت عنوة ملك البلاد الشرعي سيدنا ومولانا محمد المنصف باشا باي معتدية حتى على القواعد الأصلية للدين والإسلامي.

وحيث إن هذه الاعتداءات قد نشأ عنها نظام إداري مضطرب، لا هو إلحاق، ولا حكم ذاتي؛ فقد ضاعت فيه الأصول التشريعية، وتلاشت فيه المسؤوليات.

وحيث إن الدولة الحامية سلكت منذ بداية عهد الحماية سياسة تفقير؛ بتجريد الشعب التونسي من أخصب أراضيه، وبمنح الموظفين ـ وكلهم فرنسيون ـ أكثر من ثلث ميزانية لا مراقبة عليها، مستندة على نظام جبائي على اعتبار العدد لا الثروة، وبإخضاع البلاد التونسية لسياسة مالية وقمرقية مضرة بالاقتصاد التونسي بدون أن تفيده في مبادلته مع البلاد الأجنبية.

وحيث إن هاته السياسة كانت سياسة تعمير البلاد بالفرنسيين معمرين وموظفين، ومن طريق التجنيس الذي بعد أن فتح في وجه التونسيين، والمالطيين، والروس الملوكيين من أتباع ـ فرانجيل ـ واللاجئين الإسبان، صار يستميل الإيطاليين حتى اليوم لتنمية عدد المواطنين الفرنسيين بالنسبة لعدد التونسيين قصد تجريد البلاد صبغتها التونسية.

وحيث إن التونسيين قد حرموا في بلادهم من الحريات الأولية ـ حريات التفكير، والنشر، والقول، والاجتماع، والتجول ـ، حتى إن ٦٥ سنة التي مرت على الحماية قضى منها التونسيون أكثر من ٢٠ سنة تحت الحكم العسكري العرفي، والبقية تحت رقابة البوليس.

وحيث إن الإسراف المالي الذي أوجبه هذا التعمير الفرنسي الجائر، قد أعجز الحماية عن الوفاء بواجباتها الاجتماعية نحو المسلمين في ميادين التموين والسكنى والصحة العامة والتعليم.

وحيث إن ذلك قد أدى بالدولة الحامية إلى إهمال كل ما يتعلق بتحسين

حالة الأفراد، وإلى الاعتناء بمصالح رأس مالية مستفرغة، فلم تقم برسالتها التمدينية التي يحاولون من أجلها تبرير نصب الحماية على البلاد.

وحيث إنه فيما يخص الأمن قد نكثت الحماية عهودها بتسليمها البلاد التونسية لدولة المحور، بينما كان المحميون يدافعون دائماً عن قضية فرنسا وحلفائها، ويبذلون دماءهم في هذا السبيل.

وحيث إن التضحيات البشرية والمساهمة في المجهود الحربي التي بذلتها البلاد التونسية، والتي تُنوسيت بعد الحرب العالمية الأولى من شأنها أن تستوجب إنهاء الحماية، وتحرير البلاد التونسية.

وحيث إن معاهدة «باردو» نصت على أن الحماية في جوهرها نظام وقتي، وأن مصالح الفرنسيين الناتجة عن هذا النظام الموقت لا يمكن بحال أن تكون لها صفة الدوام والاستمرار.

وحيث إنه ـ من جهة أخرى ـ لا يمكن لمصالح دولة حامية أن تحول دون حقوق الشعب الثابتة في تقرير مصيره بكامل الحرية.

وحيث إن الاستعمار يعتبر بحق سبباً للتنافر بين الدول، ومثاراً للمشاكل الدولية، قد عبرت الأمم المتحدة عن استنكارها له بحكم صريح، وجعلت من بين الأهداف التي خاضت من أجلها غمار الحرب: «حق الشعوب كلها في اختيار صورة الحكم الذي ترتضيه لنفسها، واسترجاع حقوق السيادة والاستقلال إلى الأمم التي انتزعت منها قهراً».

وحيث إن هاته النظرية الجديدة أخذت تتجلى وتتأكد أثناء المؤتمرات العالمية المختلفة، وحيث كانت فرنسا من بين الدول الاستعمارية التي صادقت على المبدأ القائل: بأنه ليس لأية أمة الحق الثابت بحكم شعوب

لا تملك زمام أمورها.

فلهاته الأسباب يصرح المؤتمر الوطني التونسي: بأن الحماية نظام سياسي واقتصادي لا يتفق مطلقاً مع مصالح الشعب التونسي، ولا مع حقه في التمتع بسيادته.

ويؤكد: أن هذا النظام الاستعماري بعد تجربة ٦٥ سنة قد حكم على نفسه بالإخفاق.

ويعلن عزم الشعب التونسي الثابت على السعي في استرجاع استقلاله التام، وفي الانضمام كدولة ذات سيادة لجامعة الدول العربية، وجامعة الأمم المتحدة، والمشاركة في مؤتمر الصلح.



سياسة فرنسا في تونس من نشرة أصدرتها جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية[1]

قام السفير الفرنسي بتونس في هذه المدة باستدعاء بعض الساسة والشخصيات البارزة في البلاد، وحدثهم عن الإصلاحات التي تنوي فرنسا إدخالها على نظام الحكم، وسألهم عن وجهات نظرهم في هذه الإصلاحات.

وقد خرج التونسيون من دار السفير كما دخلوها لا يحملون معهم جديداً إلى يقينهم بأن السياسة الاستعمارية الفرنسية لا تتغير، وإن حاول بعض الفرنسيين إعطاءها صبغة المودة وحسن التفاهم.

وحديث السفير عادة معقد بعيد عن الصراحة، تظهر من خلاله سوء نية الحكومة الفرنسية، وما تضمره للشعب التونسي ولمستقبله من كيد وشر. فهو لا يريد الحل الطبيعي للمشكلة التونسية، وهو إعطاء أرباب البلاد حق اختيار حكومتهم، وتقرير مصيرهم؛ لأنهم إذا تركت لهم الحرية في اختيار مصيرهم، فسوف لا يرضون بغير الاستقلال والانضمام للجامعة العربية بديلاً. وهذا شيء يبث الرعب في قلب فرنسا التي أخرجت من هذه الحرب هزيلة منهوكة القوى، ليس لديها ما تعول عليه إلا مستعمراتها البائسة التي أراد سوء طالعها أن تكون ضحية لفرنسا، تمتص دماءها، وتسلبها أرزاقها،

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن الأول والثاني من المجلد العشرين الصادران في رجب وشعبان ١٣٦٦هـ ـ القاهرة.

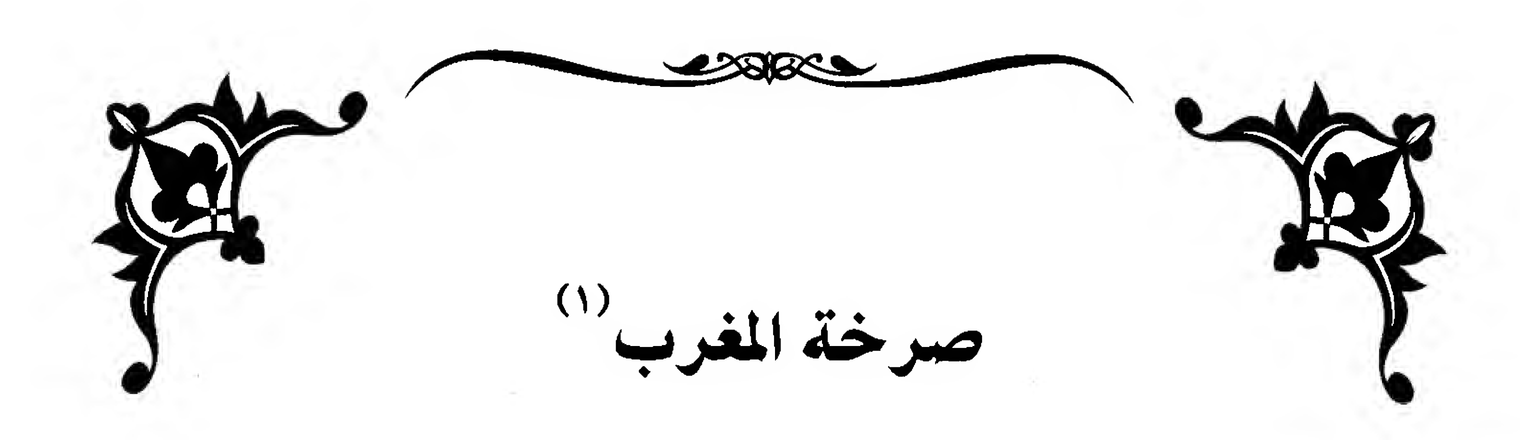
لتعوض ما ضيعته في الحرب.

فأية محاولة من أي بلد من البلدان الخاضعة لها ترمي إلى الاستقلال عنها، تقاومها فرنسا بكل ما تعرفها من قوة.

وهي ما فكرت في «الاتحاد الفرنسي» إلا لزيادة توطيد أقدامها في البلدان التي تسيطر عليها، وإلا محاولة لنزع فكرة الانضمام للجامعة العربية من رؤوس المغاربة.

ولكن التونسيين الذين حنكتهم الظروف، وَطَّدوا العزم على ألا يثقوا بفرنسا، ولا بإصلاحاتها، ولا باتحادها الفرنسي. فهم يريدون حكومة ديمقراطية تستمد نفوذها من الشعب، وتحافظ على تراثه وتقاليده، وتوثيق صلته بالعروبة والإسلام.





صرخة المغرب[1]

يصرخ المغـربُ غيظـاً واحتراقـاً صرخة الناهض للمـوت اشـتياقا

لا تلومـــوه إذا خـــاض الـــوغى ورأيـــتم دمـــه الغـــضَّ مراقـــا

هو يلتذُّ الردى إذ يسكب الـضيـ ـــم فـي أكؤسـه، مـاء زُعاقـا[2]

* * *

أوفـــد الـــشرق رجـــالاً طبقـــوا أرضـــه رشـــداً وعلمـــاً ووفاقـــا

فانبرى يسمو بجنب الـشرق فـي همم تستشرف[3] الـسبع الطِّباقـا

شـــاد بالعرفـــان والعـــدل عـــلاً عقـدت مـن أدب الـدين نِطاقـا

واقتنـــى للـــذود عـــن ســـاحتها مرهفات البيض والخيـل العِتاقـا

وجـــرى الإصـــلاح فـــي آفاقـــه نازفـاً[4] أسـقامه حتـى أفاقـا[5]

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن الأول والثاني من المجلد التاسع عشر الصادر في رجب وشعبان ١٣٦٥هـ ـ القاهرة.

(٢) مر لا يطاق شربه.

(٣) استشرف الشيء: رفع رأسه ينظر إليه.

(٤) مزيلاً، من نزف ماء البئر: إذا نزحه كله.

(٥) أفاق من مرضه، ورجعت الصحة له.

يحـــسب الوافـــد بـــدءاً أنـــه جاء أرض الشام، أو وافى العراقـا

أمـــةٌ أودعـــت التـــاريخ مـــا بهـــر الأحفـاد مـن فخـر وراقـا

وصـــل الأحفـــاد مجـــداً تالـــداً بطريف فـازدهى المجـد اتـساقا

راعهـم جنـد غريـبٌ حـلَّ فـي أرضـهم يختـرق البـيض الرقاقـا

حـــسب البغـــي علـــيهم خمـــرة فتعاطـــاه اصـــطباحاً واغتباقـــا

ذكروا عهـد العـلا، والحـر مـن يـذكر العهـد حفاظـاً وصـداقا

نهـضوا نهـض أسـودِ الغـاب لا يعرفـون الـدهر للـذعر مـذاقا

ظلـت الحـرب سِـجالاً حقبـةً لـم يـنم فيهـا الفريقـان فُواقـا[١]

أي حـــرب وضـــعت أوزارهـــا أيّ أمـن مـد فـي الأرض رُواقـا

بـين أيـد أمعنـت فـي عـسفها وقلـوب ملئـت منهـا حناقـا[٢]

* * *

يـــسفك البـــاغي دمـــاءً ذنبهـــا أنهـــا تغلـــي إذا شـــد الخناقـــا

وطغـى فـي الأرض حتـى إنـه هـمَّ بالـدين خـسوفاً أو محاقـا

ينصب الأشراك كي يصرف عـن حكمـــة الله قلوبـــاً وحِـــداقا

لاذ بـالتجنيس[٣] والقـوم أبـوا خوف أن يصلوا به النار الحراقا[٤]

وبنـــو المغـــرب عـــرب شـــيماً ولـــساناً لا ادعـــاءً واختلاقـــا

(١) الفترة بين الحلبتين.

(٢) جمع حنق، وهو الغيظ الشديد.

(٣) فتح باب التجنس بالجنسية الفرنسية.

(٤) التي لا تبقي على شيء.

شـــاد دون الـــشرق ســـداً فغـــدا وصل مـا بـين الـشقيقين افتراقـا

يلـــدع الأكبـــاد بـــالمرِّ وقـــد يلمـــس الآذان بـــالحلو نفاقـــا

أمـــة أعهـــدها تحنـــو علـــى ســـانح الآراء تبغيـــه عتاقـــا[1]

فاســألوا أقلامهــا مــا خطبهــا تتمـشى فـي القـراطيس رقاقـا[2]

أيهـــا الـــدائب فـــي تثبيطهـــا وشـعوب دونهـا حـازوا الـسباقا

قـــوض الـــسد الـــذي شـــيدته قبل أن يجتابـه[3] القـوم اختراقـا

خــذ إلــى صــدرك كفيــك ودع خيلها تعدو إلى المجـد انطلاقـا

وقـــل الفـــصل إذا حـــدثتها فالريــاء اليــوم لا يلقــى نَفاقــا

أنـــت تبغيهـــا خمـــولاً وإذا أهبت للصيت[4] ضاعفت الوثاقا

مــن عــذيري إن أنــا مجــدتها يــوم تجتــاح قيــوداً ورياقــا[5]

محمّد الخضر حسين

❐ ❐ ❐

---

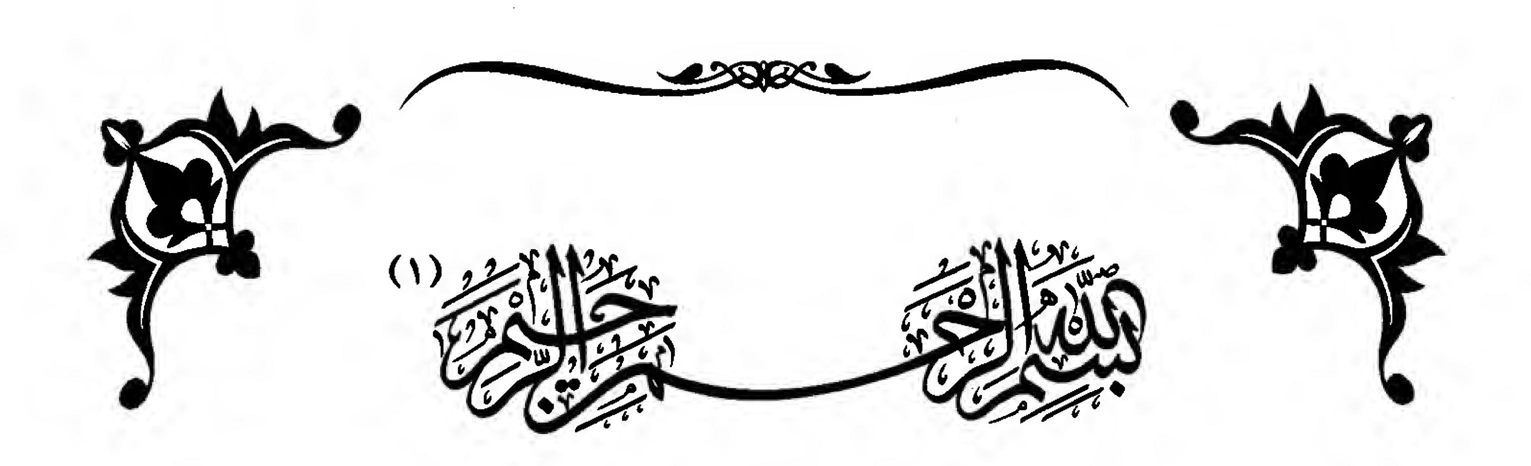
(١) تطلب له الحرية.

(٢) جمع رقيق: ضد الحر.

(٣) يقطعه.

(٤) أهبت: أخذت الأُهبة. والصيت: الذكر الحسن.

(٥) جمع ريق، هو الحبل فيه عدة عرى يشد به البهم.



في يوم ١٢ مايو ١٩٤٨م يكون قد مرّ على احتلال فرنسا للبلاد التونسية ٦٧ عاماً. ولقد رأينا لهذه المناسبة والذكرى المؤلمة التي تعيد لأذهاننا تلك الظروف السوداء التي فقدنا فيها استقلالنا كدولة، وحريتنا وكرامتنا كأمة، أن نقدم للعالم صورة مصغرة للاستعمار الفرنسي في هذه البلاد، التي فرضت عليها فرنسا حمايتها بالقوة المسلحة، وقضت على استقلالها بالحديد والنار، وانتزعت من الشعب التونسي وحكومته كل سلطة له في بلاده، ومنصب للحكم، ومصدر للنفوذ، كما اغتصبت منه موارد الثروة، وأقفلت في وجهه سبل الحضارة والرقي، ومنعته من الاستنارة بنور العلم والمدنية، وأسلمته للفقر والمرض والجهل والجوع، وقرنت حياته كلها بالعسف والنكال، وتلك هي رسالة الاستعمار في العالم منذ نشأ وإلى الآن، كيفما كان مأتاه وجنس القائمين عليه، وإذا اختلف، فإنما يختلف في الوسيلة والأسلوب، لا في الغاية التي يدفع إليها بالمستضعفين.

فلونٌ من الاستعمار يرمي إلى الإبقاء على عبيده واستغلالهم، واستثمار

---

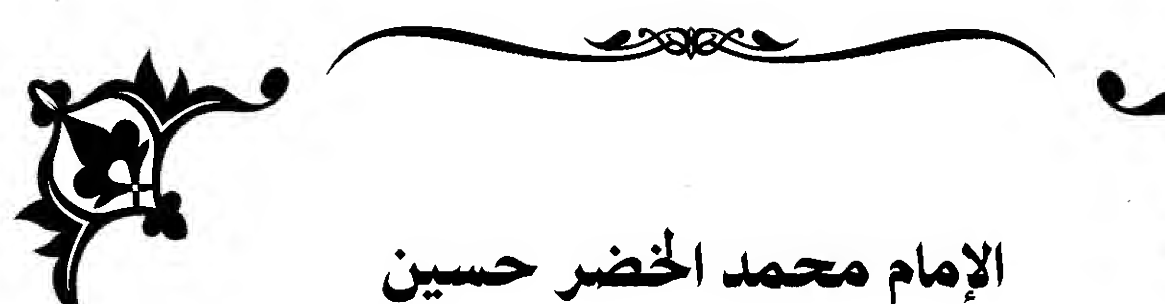
(١) نشرت هذه المذكرة كمقدمة في رسالة صغيرة الحجم تحت عنوان: «تونس ٦٧ عاماً تحت الاحتلال الفرنساوي ١٨٨١ ـ ١٩٤٨م». صدرت عن مكتب الدعاية والنشر للجبهة ـ المركز العام: شارع مجلس النواب ٢٩ القاهرة.

أوطانهم بواسطتهم، والانتفاع بخيراتهم دونهم، ولون آخر يريد بعد كل ذلك إفناء المستعبدين فيه، وإبادتهم كجنس قائم بذاته له مكانه في هذا الوجود، وهذا ما تعانيه أفريقيا الشمالية من الاستعمار اللاتيني القاسي الذي يبيد الأمم، ويقضي على معنوياتها ومشخصاتها، حتى تمتزج بجنسه، وتذوب فيه، وعندها يأمن أن لا تعود إلى الوجود، فتطالب بوطنها الذي ألحق بوطنه، وصيّره إلى الأبد من ضمن أملاكه.

فالأمم التي تعاني الاستعمار الفرنسي وأمثاله، إنما تواجه سياسة فناء وإبادة، وخطر انقراض وزوال، سياسة تحارب الأمم في لغتها وعقيدتها وتقاليدها وأخلاقها، وفي سلطانها ومصادر ثروتها، تحاربها بكل الوسائل، وفي كل الجهات، وعلى توالي السنين بدون هوادة ولا انقطاع. والاستعمار منذ وجد لم يكن إلا حرابة: إجراماً، وسلسلة من الآثام تلطخت بها الكرامة الإنسانية، وحملت تبعاتها البشرية، ولم يعد لأنصار الاستعمار بعد أن امتلأت صفحات تاريخه بدماء ضحاياه ودموع مظلوميه أن يقولوا: إنه وسيلة تمدينية، وقد أثار في ما بين المستعمرين أنفسهم حروباً دمرت مدنية أجيال، وحطمت نتاج العقل الإنساني، ومعالم الحضارة التي اشتركت في بنائها الأمم منذ أحقاب، ومع ذلك، فإن الكمال الإنساني لم يصل بعد إلى درجة التضامن لإزالة هذا الإجرام العام، وتحويل الذين يبنون سعادتهم من شقاء الغير إلى الارتزاق من طرق مشروعة، وأوفر شرفاً من استرقاق البشر، وتسخيره، واغتصاب ممتلكاته لبناء العظمة المادية، وتكوين الثروة، وجمع القوة وتوجيهها للشر المحض بدلاً من أن توجه لرفع المستوى الإنساني إلى أرقى معارج الكمال.

إننا نضع هذه الحقائق أمام العالم المتمدن، عسى أن ينتبه ضميره، ويشعر بمسؤوليته، خصوصاً الدول التي قطعت على نفسها وعوداً بذلك، وقالت عن الحرب الأولى والثانية: إنها حرب الحرية والدفاع عن حقوق الإنسان، واشترك فيها ـ بناء على ذلك ـ المستضعفون بأوفر قسط من التضحيات، تضحيات الأرواح والأموال والجهود التي ضمنت النصر، وأنقذت الموقف في كثير من الفترات الحرجة، هذه الأمم تتطلب إنجاز الوعود التي قطعت لها أثناء حربين، والالتزامات التي أمضيت من طرف أنصار الحرية ورجال الديمقراطية بإزالة نظام الرق الاستعماري الفظيع؛ فإن العالم يوشك أن يصلى نار حرب ثالثة، ينادي هؤلاء المستضعفون لخوض غمارها باسم الحرية وحقوق الإنسان، فلا يستجيبون، فإنهم إذا لم تعط لهم حقوقهم من الآن، وترد إليهم حريتهم، ويصبحون وبأيديهم حق يدافعون عنه، وكرامة إنسانية يفدونها بالمهج والأرواح، ويذودون عنها، ومثل عليا تهون عليهم في سبيلها التضحيات، إنهم إذا لم يعط لهم ذلك، لا يمكن أن يثقوا بوعود قطعت لهم مرتين، والتزامات وثقوا بها أثناء حربين، ثم هم لم يخرجوا من حرب الحرية والدفاع عن حقوق الإنسان إلا إلى العبودية والعسف والامتهان.

إن العالم لا يخلو من رسل الخير، ومثل الإنسانية الكاملة، وإنا نتوجه إلى هؤلاء بالنداء في كل أمة، ليتعاونوا على إزالة الشر، ومحاربة الظلم، والقضاء على جريمة الاستعمار، وإراحة العالم من أخطارها الوبيلة، وتبعاتها الملوثة للشرف الإنساني، المحطمة للمثل الأخلاقية العليا، التي يتجه العالم إليها اليوم لإخراج أمة موحدة، وعالم مجتمع في الخير والسعادة والسلام.




الإمام محمد الخضر حسين
قدوة الأفاضل من التونسـيين

كان الإمام محمد الخضر حسين على اتصال مع التونسيين العاملين في الحقل العلمي والسياسي، وكثيراً ما زوّدهم بالنصائح والتوجيهات التي تخدم القضية التونسية. ويكفي أن ننظر مثلاً لما اتخذه فيه العلماء من قدوة واسترشاد وسداد الرأي ما كتبه العلامة الأجل محمد الشاذلي النيفر حول مشاركته في الحياة العامة التونسية.

قال من كتاب «بحوث ودراسات مهداة إلى الشيخ محمد الشاذلي النيفر إعداد مجموعة من الأساتذة وتقديم الشيخ محمد المختار السلامي»:

ساهمت مساهمة فعالة، وكنت والحمد لله إلى الإخلاص فيها والوفاق عندما انشقت الحركة، وقد اغتنمت فرصة سفري لحج الضرورة سنة ١٣٦٥هـ الموافق لـ ١٩٤٦م، فكاتبت قبل سفري إلى الحج في الباخرة (أندوس الثاني) الشيخ العلامة محمد الخضر حسين؛ لأجتمع به، وأستعين بآرائه للعمل في سبيل القضية التونسية، ولكن لن تتيسر له المقابلة، فكاتبني الشيخ مكبراً عملي ـ رحمه الله ـ بما نصه:

«جمعية الهداية الإسلامية ـ المركز العام: القاهرة ٢٩ شارع مجلس النواب ت ٥٣١٨٩. تحريراً في ٩ ذي الحجة ١٣٦٥هـ.

فضيلة العالم البارع الأستاذ الشيخ محمد الشاذلي النيفر ـ حفظه الله ـ،

4396

بعد إهداء أزكى تحية.

تسلمت خطابكم الكريم، فأحمد الله على عافيتكم، وأشكركم على المراسلة، وكنت حريصاً على أن أزور الباخرة عند مرورها ببرت سعيد، ولاسيما بعد أن تلقيت برقية من ابن عمنا حضرة الفاضل السيد عبد الرحمن ابن علي بن عمر، ولكن حالتي الصحية عاقتني عن ذلك. وقد سررت جداً بحديثكم عن القضية التونسية، وسنجتهد في تعرف وقت مرور الباخرة بالسويس، أو برت سعيد؛ لعلنا نحظى بلقائكم، ولو مقدار ساعة أو ساعتين. وإذا كان من الميسور لكم إعلامنا من جدّة، أو محجر الطور بيوم وصول الباخرة إلى السويس، أو برت سعيد، فنعمّا هو.

ويلغوا أعز تحيتنا السيد عبد الرحمن، والأستاذ الشيخ علي بن الخوجة، والأستاذ الشيخ أحمد جعيط. فقد أبلغت أنهما ممن قصد أداء نافلة الحج في هذه السنة، وأعود فأقول: إني مبتهج بما يبلغني عنكم من النبوغ في العلم، والاتجاه إلى العمل للمصلحة العامة، ودمتم في سعي حميد. وتقبلوا أزكى السلام من أخي والدكم الجليل رحمه الله.

محمد الخضر حسين



خطبة الأستاذ محمد الخضر حسين في دار جمعية الهداية الإسلامية في الاجتماع الذي عقد لذكرى مرور عام على الظهير البربري(١)

أيها السادة!

أصيب العالم الإسلامي بهذا البلاء الذي يسمونه: الاستعمار، وهو تهلكة الشعوب التي ليس بعدها تهلكة، وفتنتها التي لا تساويها فتنة، وهل تصاب الجماعة بأشد من أن يخرج أمرها من يدها، وتقع تحت سيطرة خصومها، تزهق أرواحها ولا قصاص، ويعتدى على أموالها ولا خلاص، ثم تكره على أن تفارق دينها الذي هو أعز شيء تغتبط به في هذه الحياة؟!

وجد أولئك المستعمرون فينا نفراً يحرصون على كسب المال وإن

---

(١) مجلة «الفتح» الجزء ٢٥٢ من المجلد السادس. وكان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب ـ القاهرة.

صدر (الظهير البربري) يوم ١٧ ذي الحجة ١٣٤٨هـ ـ ١٦ مايو ١٩٣٠م في المغرب، وهو الظهير السلطاني المتضمن إنشاء محاكم عرفية تنظر في شؤونهم المدنية والجنائية. كما أن الأحوال الشخصية (زواج، طلاق، ميراث) فإن مرجعها إلى مراقب الناحية الفرنسي، فهو الذي يعقد أنكحتهم ويفسخها، ويقوم بسائر أحكام أحوالهم الشخصية. ويتنازل السلطان عن التدخل في شؤون البربر الدينية وغيرها. وليس له مطالبتهم بالشعائر الإسلامية كلها، وأنه يكل أمرهم إلى الإدارة الفرنسية تفعل بهم ما تشاء، والغاية منه هو تنصير البربر.

كان خبيثاً، ويتساقطون على الجاه ولو من طرق دنيئة، فاتخذوا منها ألسنة تنطق، وأقلاماً تكتب، وأيدياً تبطش، فازداد قرحنا بأمثال هؤلاء فساداً، وأوشك داؤنا أن يكون عضالاً، ولا أقول: أصبح داؤنا عضالاً؛ لأن كل داء اجتماعي ـ بلغ من الخطر ما بلغ ـ قابل للعلاج وللبرء، إلا أن تفقد الأمة أطباء يعرفون داءها، وينصحون في وصف دوائها.

يزعم أولئك المستعمرون أنهم هبطوا شمال أفريقية ليقيموا للحرية سوقاً نافقة، ويعلموا شعوبه كيف تكون الإنسانية المهذبة، نعم، هبطوا، فوضعوا على أبواب الحرية أقفالاً، وعلّموا الناس كيف يطغى الأقوياء على الضعفاء، ويذيقونهم العذاب ألواناً.

يزعم أولئك المستعمرون أنهم هبطوا شمال أفريقية لينشروا مدنية ورفاهية، نعم، نشروا فيه جيوشاً من مقليهم يسمونهم: (المعمرين)، فاستولوا، وما زالوا يستولون على أخصب الأراضي بقانون جائر وبغير قانون، يحرصون أن يكونوا سادة مترفين، ويكون الوطنيون عبيداً بائسين، والمعمر هنالك يقتل الوطني رمياً بالرصاص، أو طعناً بمحدد لأقل سبب يثير غضبه، ولا يخشى أن يلقى على هذه الجناية الكبرى عقاباً.

يزعم أولئك المستعمرون أنهم هبطوا شمال أفريقية ليعمروه بالعلوم والفنون، نعم، مسكوا بزمام إدارة المعارف، وحصروا التعليم في دائرة ضيقة، ورسموا له طرقاً ملتوية، كذلك يصنعون؛ لأنهم يشعرون أن العبودية والعلم لا يجتمعان في شعب إلا أن يجتمع الليل والنهار في مكان.

لم يكفهم وضع سلطانهم على الرقاب، وغلظة قلوبهم على الإرهاق، وجولة أيديهم في الأموال، وإفساد طريقة التعليم في المدارس، لم يشف

غليلهم هذا العسف والاضطهاد، فمدوا أيديهم ليصرفوا الإيمان عن قلوب أبنائنا، ويتبدلوا قوانينهم بأحكام شريعتنا.

ألم يأتكم نبأ الفرنسيين بالمغرب الأقصى إذ يعملون على إخراج قبائل البربر من الحنيفية السمحة إلى النصرانية الكاثوليكية؟ ولا أطيل على حضراتكم بسرد الحجج على أنهم يبذلون في هذه الغاية قوتهم، فقد قرأتم في مجلة «الفتح» وغيرها من الصحف وثائق لا يمسها الريب في حال.

يقول الفرنسيون القائمون بحركة تنصير البربر: إن البربر لم يكونوا في يوم مسلمين بحق، يقولون هذا؛ ليخففوا عن المسلمين مصاب تنصيرهم، ويثبطوهم عن مقاومة هذه الحركة الباغية بما في وسعهم.

ورأى المؤرخ ابن خلدون قد نظر إلى هذا الزعم بنور الله، وتصدى - وهو من علماء القرن الثامن - لرده بإسهاب، وإليكم نبذة مما قاله في وصف البربر من ناحية صدق إسلامها بعد أن تحدث عن كمال أخلاقها، وكرم طباعها، قال - رحمه الله -:

«وأما إقامتهم لمراسم الشريعة، وأخذهم بأحكام الملة، ونصرهم لدين الله، فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين كتاب الله لصبيانهم، والاستفتاء في فروض أعيانهم، واقتفاء الأئمة للصلوات في نواديهم، وتدارس القرآن بين أحيائهم، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم، وصاغيتهم إلى أهل الخير والدين من أهل مصرهم للبركة في آثارهم، واغتشائهم البحر أفضل المرابطة والجهاد، وبيعهم النفوس من الله في سبيله وجهاد عدوه، ما يدل على رسوخ إيمانهم، وصحة معتقداتهم، ومتين ديانتهم التي كانت ملاكاً لعزهم، ومقاداً إلى سلطانهم، وكان المبرز في هذا المنتحل يوسف بن تاشفين،

وعبد المؤمن بن علي، وبنوهم، ثم يعقوب بن عبد الحق بعدهم، وبنوه».

هذا ما يقوله ابن خلدون شاهداً لأمة البربر بمتانة الدين، والعمل لإعلاء كلمته، ومن درس تاريخ تونس والجزائر والمغرب الأقصى والأندلس، ووقف على سير الملوك والعلماء الذي هم من هذا القبيل، وجد فيهم الإيمان الصادق، والعمل لظهور الدين بحسن نية، وخلوص سريرة، ووثق بأنهم كانوا من الأجنحة التي حلَّق بها الإسلام على أوطان مظلمة، فنزل بها، وبسط نور هدايته في ربوعها.

وقبائل كانت لها في الإسلام هذه القدم الراسخة، يدمي قلوب المسلمين أن تمضي فرنسا في إفساد عقائدهم، ومحو تعاليم القرآن من ديارهم، فحق على علماء الإسلام وحماته في الشرق والغرب أن يسهروا في ابتغاء الوسائل إلى قمع هذه الفتن التي أخذت ترفع رأسها، وتكشر عن أنيابها، ولا يهولنا ما يكتنفها من النار والحديد، فإن العاقبة حكمة الدعاية، وقوة الحجة، والصبر على المكاره. والسلام عليكم ورحمة الله.

محمد الخضر حسين



قانون جمعية
تعاون جاليات إفريقيا الشمالية :
طرابلس، وتونس، والجزائر، ومراكش

أتى حين من الدهر على جاليات شعوب أفريقية وهم في خمول وتجاف، وما كان لأوطان أنبتت فاتحاً كأسد بن الفرات، وملكاً خطيراً كعبد المؤمن ابن علي، وفيلسوفاً كابن خلدون، وأديباً كابن رشيق، أن تبقى الجاليات التي تمثلها في القاهرة، وهي عاصمة الشرق في نهضته العلمية والاجتماعية، بعيدة عن مظاهر الحياة الراقية، حتى فاتهم أن يقوموا بحق ذوي الحاجات منهم، ويضربوا بسوط الموعظة والأدب الجميل على يد من سولت له نفسه أن يكتسب بها إثماً، أو يضعها في حرفة غير مشروعة.

وقد بصرت طوائف من هذه الجاليات أن في الاجتماع مصالح تقصر دونها أيدي الأفراد، وإن أوتوا كرم النفس وسعة المال، فأرادوا أن يقتفوا أثر غيرهم من جاليات الشعوب الأخرى فيما عقدوه من جمعيات تعبر عن إحساسات سامية، وعواطف شريفة.

ولم تهدأ خواطرهم حتى نهضوا يتداعون لتأليف جمعية خيرية إصلاحية، فوجدوا روح الشعور بالحاجة إليها مبثوثاً في نفوس ذوي الفطر السليمة منهم، وما لبثوا أن عقدوا اجتماعاً خاصاً لبيان مقاصد الجمعية، ورسم نظام تسير به في استقامة ونشاط، فكانت صفوة المفاوضة هي المواد التالية:

أولاً: تألفت في مدينة القاهرة جمعية خيرية إصلاحية تسمى: «جمعية

تعاون جاليات أفريقية الشمالية»: طرابلس، وتونس، والجزائر، ومراكش.

ثانياً: شعار الجمعية: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: ٢].

ثالثاً: مقاصد الجمعية:

١ - تمهيد وسائل التعارف بين الطرابلسيين والتونسيين والجزائريين والمراكشيين، وإسعاف ذوي الحاجات منهم حسب الاستطاعة.

٢ - تنوير أفكارهم وجعلهم على بصيرة مما يقتضيه حال العصر ونظم الاجتماع.

٣ - بث الأخلاق الفاضلة بينهم، ودعوتهم بالتي هي أحسن إلى المظاهر الشريفة، والسير المحمودة.

٤ - الدفاع عن حقوقهم بالطرق الحكيمة السليمة.

٥ - يتوصل إلى هذه المقاصد الشريفة بإقامة منتدى تلقى فيه محاضرات علمية أدبية.

رابعاً: أعضاء هذه الجمعية ثلاثة أقسام:

١ - عاملون: وهو كل طرابلسي، أو تونسي، أو جزائري، أو مراكشي يثبت على دفع معلوم الاشتراك المقرر في المادة الخامسة.

٢ - ومساعدون: وهم الذين يقومون للجمعية بعمل إداري، أو علمي، أو إرشادي، أو بمراسلتها بما يعود على مقاصدها بفائدة.

٣ - وأعضاء شرف: وهم الذين يتبرعون للجمعية بمبلغ ذي بال من المال، أو من يختارهم مجلس الإدارة ليستنير في بعض الشؤون الخيرية أو الأدبية بآرائهم.

خامساً: ويصح أن يكون العضو المساعد وعضو الشرف من غير جاليات أفريقية شمالية.

سادساً: مقدار الاشتراك العادي في هذه الجمعية خمسة قروش في كل شهر.

سابعاً: تنتخب الجمعية العمومية، وهي هيئة الأعضاء العاملين مجلساً لإدارة شؤون الجمعية بطريق الاقتراع السري. وتكون وظيفته لمدة سنتين.

ثامناً: يتألف مجلس الإدارة من رئيس، وسبعة أعضاء، وكاتب السر العام، وأمين الصندوق.

تاسعاً: ينتخب من كل جالية من الجاليات الأربع (طرابلس، تونس، الجزائر، مراكش) عضوان، ثم إن الأعضاء ينتخبون الرئيس من بينهم بطريق الاقتراع السري.

عاشراً: ينتخب أمين الصندوق وكاتب السر العام من قبل الجمعية العمومية.

الحادي عشر: حرصاً على طول حياة الجمعية، ومحافظة على أن تكون مسؤولة أمام سلطة واحدة، يشترط في مجلس الإدارة أن يتألف من أبناء الجاليات الأربع الذين تجري عليهم أحكام الدولة المحلية المصرية.

الثاني عشر: إذا خلا مكان أحد أعضاء، أو أمين الصندوق، أو كاتب السر العام، انعقدت الجمعية العمومية في أقرب وقت ممكن لانتخاب من يحل محله.

الثالث عشر: لا يصرف شيء من أموال الجمعية إلا بقرار من مجلس الإدارة، وإنما التوقيع يكون من الرئيس، وكاتب السر العام، وأمين الصندوق.

الرابع عشر: إذا تجاوز مال الجمعية مئة جنيه، يودع أمانة بلا فائدة في أحد البنوك باسم الجمعية.

الخامس عشر: تنعقد الجمعية العمومية في منتهى كل سنة، وعندما يقتضي الحال اجتماعها، وذلك بدعوة كتابية من كاتب السر العام بعد الاتفاق مع الرئيس.

السادس عشر: تتكون أموال الجمعية من قيمة الاشتراك، وتبرعات أهل الفضل العارفين بما يترتب على تأليف الجمعيات الخيرية من الآثار الحميدة.

السابع عشر: على مجلس الإدارة أن يقدم للجمعية العمومية تقريراً سنوياً ببيان أعمال الجمعية، وميزانيتها من واردات ومصروفات.

الثامن عشر: تعديل هذا القانون يرجع إلى نظر الجمعية العمومية، وإنما يطرح على بساط المفاوضة إذا اقترحته طائفة من الأعضاء العاملين لا يقل عددهم عن عشرين عضواً، وللجمعية الحق في قبوله ورفضه.

التاسع عشر: التعرض لتغيير شيء من مقاصد الجمعية، أو للإخلال بما ورد في المادة العاشرة من اشتراط أن يكون مجلس الإدارة مؤلفاً من أشخاص يتمتعون برعاية الدولة المحلية المصرية، يعد سعياً في إبطال الجمعية، وانفصالاً عن العضوية بها.

العشرون: اطلع على هذا القانون جمع عظيم من الطرابلسيين والتونسيين والجزائريين والمراكشيين في القاهرة، وأجمعوا على قبوله، والتعاون على العمل بما يقتضيه، والله ولي التوفيق.

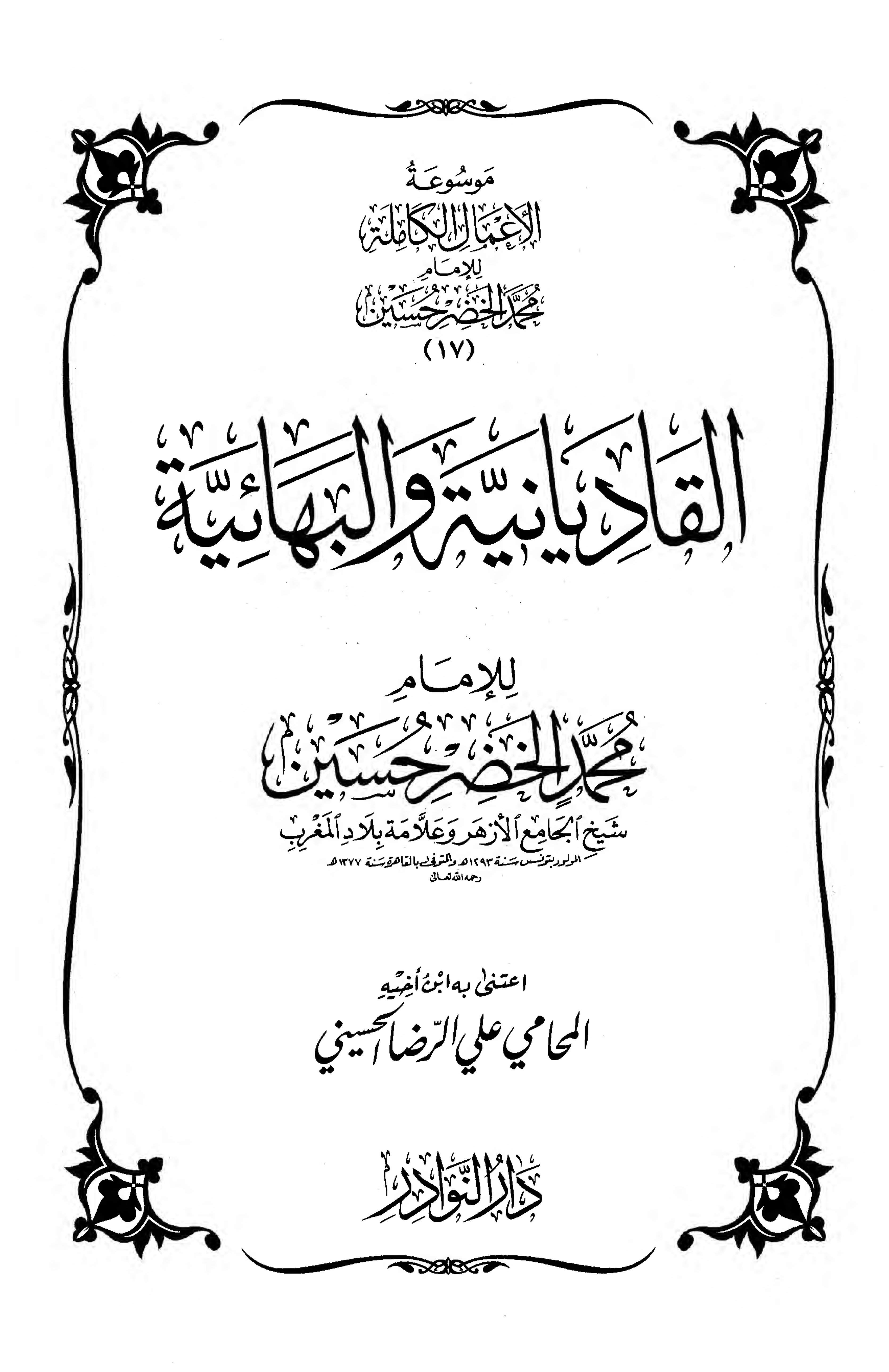


فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

❐ ❐ ❐



موسوعة
الأعمال الكاملة
للإمام
محمد الخضر حسين
(١٧)

القاديانية والبهائية

للإمام
محمد الخضر حسين
شيخ الجامع الأزهر وعلامة بلاد المغرب
المولود بتونس سنة ١٢٩٣ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ١٣٧٧ هـ
رحمه الله تعالى

اعتنى به ابن أخيه
المحامي علي الرضا الحسيني

دار النوادر



الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ردمك: ٦ - ٣٦ - ٤١٨ - ٩٩٣٣ - ٩٧٨ : ISBN

9789933418366

دار النوادر

سورية - لبنان - الكويت

مُؤَسَّسَة دَار النَّوَادِر م.ف - سُورِيَة * شَرِكَة دَار النَّوَادِر اللُّبْنَانِيَّة ش.م.م - لُبْنَان * شَرِكَة دَار النَّوَادِر الكُوَيْتِيَّة - ذ.م.م - الكُوَيْت

سورية - دمشق - ص. ب: ٣٤٣٠٦ - هاتف: ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس: ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)

لبنان - بيروت - ص. ب: ١٤/٥١٨٠ - هاتف: ٦٥٢٥٢٨ - فاكس: ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)

الكويت - حولي - ص. ب: ٣٢٠٤٦ - هاتف: ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس: ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

أَسَّسَهَا سَنَة: ٢٠٠٦م

نُور الدِّين طَالِب

المُدِير العَام والرَّئِيس التَّنفِيذِي



المقدمة

في كل زمان ومكان يطل أعداء الإسلام برؤوسهم الخبيثة، وأفكارهم السقيمة، وأقلامهم الزائفة عن الحق، محاولين الطعن والمساس بالشريعة الإسلامية الغراء، فينبري لهم علماء أجّلة يردون عن الدين كيدهم، ويدفعونهم على أعقابهم خاسئين خاسرين.

وفي حياة الإمام الأكبر المرحوم محمد الخضر حسين ـ رضوان الله عليه ـ مواقف عظيمة، ومشاهد جليلة، ذاد فيها عن الدين الحنيف هجمات الباطل التي قام بها حملة الضلال والإفساد، فصرعهم الحق، ورماهم في ظلام النسيان، ولم نسمع لهم فحيحاً من بعد.

وطائفة القاديانية، وكذلك طائفة البهائية أو البابية، تعرض المؤلف لهما في هذا الكتاب، وكشف القناع عن زيف آرائهما، ودفع بالحجة الساطعة أباطيل دعوتيهما، وكان لهذه المقالات شأنها الكبير في فضح هاتين الطائفتين أمام أنظار المسلمين، وحصر البلاء في نطاق، ومنع انتشاره بين الناس، ومن ثمَّ القضاء عليه.

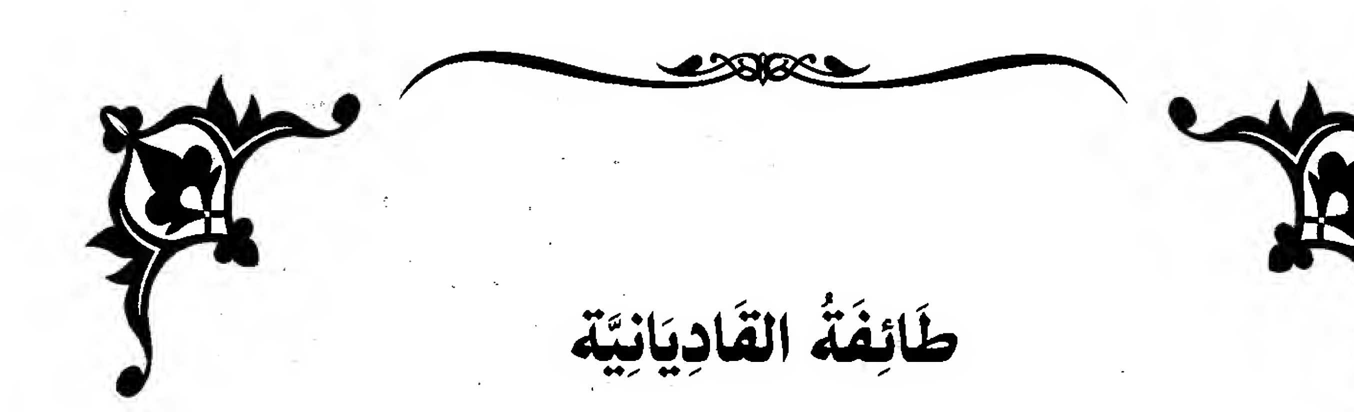
وليعلم القارئ : أن جميع أبحاث هذا الكتاب سبق أن نشرت في مجلة «نور الإسلام» التي يصدرها الجامع الأزهر في القاهرة، وترأس الإمام رئاسة تحريرها فترة من الزمن، وقد أشرنا إلى ذلك في مطلع كل مقال. ونضيف :

أن بحث «طائفة القاديانية» سبق أن نشر في رسالة مطبوعة عام ١٣٥١هـ بالقاهرة، كما أن بحث «البابية أو البهائية» نشر في كتاب «رسائل الإصلاح» الطبعة الأولى منه.

والله نسأل السداد والتوفيق.

علي الرضا الحسيني





طَائِفَةُ القَادِيَانِيَّة

* **طائفة القاديانية:**

غلام أحمد: أصله، وولادته، ونشأته ـ ادعاء غلام أحمد الوحي والنبوة والرسالة ـ زعمه أن له آيات على صدقه ـ غروره وتفضيله نفسه على بعض رسل الله الأكرمين ـ تكفيره لمن لا يؤمنون برسالته ـ القاديانية فرقتان ـ وجوب مقاومتهم، والتحذير منهم.

* **تفنيد مذهب القاديانية:**

خيبة مدعي النبوة كذباً ـ انقطاع النبوة بعد رسول الله ﷺ ـ دفع شبهة يتشبث بها القاديانية ـ دعوى غلام أحمد أنه أفضل من عيسى عليه السلام ـ تكفير غلام أحمد لمن عصمهم الله من اتباعه ـ تزوير داعية القاديانية ـ اقتراح غلام أحمد على علماء الهند أن يتركوه عشر سنين ـ ادعاء غلام أحمد النبوة.

* **نقض شُبه القاديانية:**

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣].

(صدق الله العظيم)

قيل للأحنف بن قيس:

- إن المختار بن عبيد يزعم أنه يوحى إليه.

فقال: صدق، وتلا:

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾[الأنعام: ١٢١].

❐ ❐ ❐



طَائِفَةُ القَادِيَانِيَّة[1]

بُعث محمد ﷺ بشريعة واضحة لا يحوم عليها لَبس، محكمة لا تدنو منها شُبهة، وتلقاها عنه رجال صفت بصائرهم، وتناهت في فهم سبل الخير عقولهم، فبلَّغوها كما أمروا، وجاهدوا في سبيلها حتى انتصروا، وما زال الدين الحق ـ ولن يزال ـ رفيعَ الدعائم، محفوظاً من أن تلعب به يد الأهواء والمكايد، والفضل في هذا الحفظ للكتاب الكريم، والسّنة الصحيحة؛ فإنهما قد وجدا ـ وسيجدان ـ في كل عصر عقولاً تنظر فيهما وهي مبرأة من كل عوج، بعيدة من كل هوى، فسرعان ما تبصر الحقائق محفوفة بحجج تقطع لسان كل جهول، وتفضح سريرة كل ختال فخور، قال الله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقد دلنا التاريخ الصادق أن الدين الحنيف يُبتلى في كل عصر بنفوس نزّاعة إلى الغواية، فتتنكب عن الحقائق، وتمشي في تحريف كلمه مكبّة على وجهها.

وليس هذا الإغواء بمقصور على من يدّعون التفقه في الدين ولم يتفقهوا؛ ككثير من زعماء الفرق المنحرفة عن الرشد، بل يتعداهم إلى فئة تسوّل له

(١) مجلة «نور الإسلام» ـ الجزء السابع من المجلد الثالث. كما طبع هذا البحث في رسالة خاصة عام ١٣٥١هـ ـ بالقاهرة.

نفوسهم ادعاء أنهم مهبط الوحي، وأنهم يتلقون ما يقولونه بأفواههم من الله تعالى بدون وسيلة كتابه الحكيم، وحديث رسوله الكريم.

ومن مدّعي النبوة من يذهب فينقطع دابره؛ كالحارث بن سعيد الذي ظهر في أيام عبد الملك بن مروان، واغتر به خلق حتى وقع في يد عبد الملك فقتله، ولم يبق له في الأرض أثر، وكإسحاق الأخرس الذي ظهر في خلافة السفّاح، واتبعه طوائف، وقتل فانقطعت فتنته.

ومن مدعي النبوة من يبقى لدعوته أثر بعد موته، ومن هذا الصنف غلام أحمد مبتدع النحلة القاديانية.

كثيراً ما وردتنا رسائل من البلاد العربية وغيرها ـ كأمريكا ـ يسأل كاتبوها عن أصل هذه النحلة، ومبلغ صلتها بالإسلام، وبالأحرى: بعد أن ظهر المقال الذي كشفنا فيه الغطاء عن النحلة البهائية، ونشرناه في الجزء الخامس من المجلد الأول من مجلة «نور الإسلام»[١]. ووردتنا رسائل أخرى مطوية على ما يصرح به دعاة هذه النحلة من الآراء، ويقترح مرسلوها نقد هذه الآراء، وتحذير المسلمين من الوقوع في مهالكها، ولم نشأ التعرض للكتابة في شأنها قبل اليوم؛ إذ لم يكن لدينا من كتب أصحابها ما نطلع به على أساسها، ونعرف منه حال واضعها.

وقد انساق إلينا اليوم من كتب مبتدعها غلام أحمد وبعض دعاتها ما جعلنا على بينة من أمرها، وها نحن أولاء نضع أمام حضرات القراء فصولاً فيما تقوم عليه هذه النحلة من المزاعم الخاطئة، ونلقي عليهم كلمات في نشأة واضعها؛ ليكونوا على بصيرة من أنها دعوى زائغة، ولا يغيب عنهم

---

(١) المقال منشور في هذا الكتاب.

أن دعاتها الذين يجوسون خلال ديار الإسلام إنما يثيرون في نفوس شبابنا فتنة، والفتنة أشد من القتل.

*** غلام أحمد: أصله، وولادته، ونشأته:**

ساق غلام أحمد نسبه، فذكر أن آباءه كانوا يسكنون «سمرقند»، ثم رحلوا إلى الهند، واستوطنوا «قاديان»، وصارت لهم الرياسة في تلك الناحية. ثم دارت عليهم الدوائر، وانهالت عليهم المصائب، وذهبت عنهم تلك الرياسة، ونهبت أموالهم، وقال: «ثم ردّ الله إلى أبي بعض القرى في عهد الدولة البريطانية».

ولد غلام أحمد سنة ١٢٥٢هـ، ولما بلغ سن التعليم، شرع في قراءة القرآن، وبعض الكتب الفارسية، ولما بلغ العاشرة من عمره، تعلم اللغة العربية، ولما بلغ السابعة عشرة، اتصل بأستاذ، فتلقى عنه النحو والمنطق والفلسفة. وقرأ على أبيه كتباً في علم الطب. أما العلوم الدينية، فلم يدرسها على أي معلم، وإنما كان له ولوع بمطالعتها[١].

وعندما قطع مسافة في التعلم، كانت السلطة البريطانية قد امتدت على «البنجاب»، وكان الشبان يطمحون إلى المناصب، فاندفع غلام أحمد يبحث عن وظيفة، فذهب إلى «سيلكوت»، وتقلد وظيفة في إدارة نائب المندوب السامي، ثم استقال منها بعد أربعة أعوام؛ إجابة لرغبة أبيه الذي رأى نفسه في حاجة إلى مساعدته له في إدارة شؤونه الخاصة.

---

(١) عن كتاب باللسان الإنجليزي لمحمود بن غلام أحمد اسمه: «أحمد رسول آخر الزمان».

وفي سنة ١٨٧٦م[١] مرض أبوه، فزعم غلام أحمد أنه نزل عليه وحي من الله بأن أباه سيموت بعد الغروب، وكان هذا الإخبار في زعمهم أول وحي نزل عليه. وأخذ بعد هذا يصرح ببعض آراء زاعماً أنه يتلقاها من طريق الوحي، وكان المسلمون يلاقون هذه المزاعم بالإنكار الشديد، فرحل إلى بلدة «لودهيانة»، وأذاع منشوراً أعلن فيه أنه المسيح المنتظر، فقام في وجهه علماء الشريعة بالإنكار، ومن بين هؤلاء العلماء: مولوي محمد حسين صاحب جريدة «إشاعة السنّة».

ودعا مولوي محمد حسين كثيراً من العلماء إلى «لودهيانة» لمناظرة غلام أحمد، ولكن الوالي (الكوميسر) في هذه الناحية كان في جانبه؛ فمنع من عقد المناظرة، وأرغم مولوي محمد حسين ومن معه من العلماء على مغادرة البلد في اليوم نفسه.

ثم انتقل غلام أحمد إلى «دهلي» داعياً إلى نحلته، فواجهه العلماء بالإنكار، وطلبوه للمناظرة فيما يدعو إليه، وقرروا أن يتولى مناظرته مولوي نظير حسين أستاذ الحديث، فلم يجب غلام أحمد للمناظرة، ولكن ـ كما يقول أتباعه ـ دعا مولوي نظير حسين إلى المباهلة: بأن يحلف هذا الأستاذ على أن عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ لم يزل حياً، وإذا حلف، ولم ينزل عليه في خلال سنة بلاء، يكون غلام أحمد كاذباً في نبوته، ولكن مولوي نظير حسين ومن معه من العلماء أبوا أن يسلكوا مع غلام أحمد هذه الطريقة بدل ما دعوه إليه من المناظرة.

وبعد هذا دعا أهالي «دهلي» مولوي محمود بشير من مدينة «بهوبال»

---

(١) نستعمل التاريخ الإفرنجي؛ لأنه الوارد في كتبهم التي ننقل عنها هذه الحوادث.

لمناظرة غلام أحمد، حكى هذا محمود بن غلام أحمد، ولم يزد على أن قال: وطبعت هذا المناظرة.

وفي سنة ١٨٩٢ ذهب إلى «لاهور» أيضاً، فجرت بينه وبين مولوي عبد الحكيم مناظرة؛ ذكر هذه المناظرة أيضاً محمود بن غلام أحمد، ولم يتعرض لوصفها، أو لمن كان له الفوز في نهايتها. وفي سنة ١٨٩٦ عقد مؤتمر الأديان في «لاهور»، وحضره ممثلو ملل كثيرة، ويقول محمود بن غلام أحمد: إن غلام أحمد هو الذي اقترح عقد هذا المؤتمر، وغرضه من هذا الاقتراح: تعريف العالم بحقيقة رسالته، وقالوا: إنه كان عندما شرع في كتابة المقال الذي أراد إلقاءه في المؤتمر، أخذه إسهال عنيف، ثم أتمه، وزعموا أنه أوحي إليه بأن مقاله سيفوق كل ما يلقى في المؤتمر، ولا ينتظر منهم بعد هذا إلا أن يقولوا: إن مقاله في المؤتمر كان فوق كل مقال، وذكروا أن أتباعه لذلك الحين لا يزيدون على ثلاث مئة شخص.

وفي سنة ١٨٩٧ دعا حسين كامي سفير تركيا في البنجاب غلام أحمد للاجتماع، فلم يجب، فذهب إليه بنفسه، وسمع منه ما يدَّعيه من نزول الوحي، وبعد انصرافه عنه، نشر في صحف «لاهور» مقالاً أنكر فيه ما يدعيه غلام أحمد أشد الإنكار، وكان لهذا المقال أثر في ازدياد حنق المسلمين على غلام أحمد في تلك البلاد.

وفي تلك السنة نشر غلام أحمد تحت عنوان: (الصلح خير) خطاباً لعلماء الإسلام يدعوهم فيه أن يكفوا عن معارضته، والتشنيع عليه مدة عشر سنين، فإذا كان كاذباً، فسيصادفه ما يظهر كذبه، وإذا تبين صدقه، فستكون هذه الهدنة سبباً لمعرفتهم للحق، ونجاتهم من العقاب الذي

ينزله الله على من يناوئونه.

ولم تجد هذه المكيدة عند علماء الإسلام غباوة، فرفضوا هذا الاقتراح، واستمروا على تفنيد آرائه، وتحذير الناس من السقوط في ضلالته.

وفي هذه السنة قصد غلام أحمد إلى التخلص من حملة المنكرين عليه، فلجأ إلى حاكم الهند العام، وقدم له مطلباً قال فيه: إن أصل اضطراب الهند هو المشاغبات الدينية، فيجب وضع قانون يسوغ لأتباع كل دين إظهار حقائق دينهم، ويحميهم من تعرض غيرهم له.

وفي سنة ١٨٩٨ وضع لأتباعه قانوناً هو أن لا يزوجوا بناتهم لمن لم يكن مصدقاً بنبوته، وفي هذه السنة أسس مدرسة بقاديان لتعليم أبناء شيعته حتى يشبوا على مبادئ نحلته.

وفي سنة ١٩٠٠ بنى مسجداً بقاديان، ولكن أقاربه الذين سلمهم الله من نزعاته بنوا أمام هذا المسجد جداراً جعل أشياعه لا يصلون إلى المسجد إلا بعد أن يمشوا مسافة طويلة، فرفع غلام أحمد عليهم دعوى، فقضت المحكمة بإزالة الجدار.

وفي هذه السنة ألقى على طائفته الخطبة التي يسميها: «الخطبة الإلهامية»، وأتباعه يعدونها من معجزاته، وسننقل فيما بعد شيئاً من هذيانها وضلالاتها.

وفي سنة ١٩٠١ أمر أتباعه بإحصاء عددهم، وتقييد أسمائهم في سجل، قال ابنه محمود بشير: هذه السنة مبدأ التفريق بينهم وبين المسلمين.

وفي سنة ١٩٠٢ أصدر مجلة لنشر مذهبه سماها مجلة: «الأديان»، وهي تنشر باللغتين: الأوردية والإنكليزية، وكان يكتب فيها بعض مقالات بنفسه. وفي هذه السنة أقام عليه السيد كريم الدين قضية ادعى فيها أنه تناوله

بالقذف، واستدعي غلام أحمد إلى المحاكمة ببلدة «جهلوم»، وحضر لدى المحكمة، فقضت ببراءته.

وفي سنة ١٩٠٣ قتل أحد دعاة مذهبه، وهو سيد عبد اللطيف بمدينة «كابل» بسبب مروقه من الدين، وفي هذه السنة كتب غلام أحمد مقالاً خرج فيه إلى شتم السيد كريم الدين حتى قال عنه: إنه كذاب لئيم، فرفع عليه السيد كريم الدين قضية قذف ثانية، واستدعي غلام أحمد إلى المحاكمة ببلدة «جردسبور»، فقضت عليه المحكمة بغرامة قدرها ٥٠٠ روبية، فاستأنف القضية لدى محكمة «أمرتسر»، وكان القاضي إنجليزياً، فنقض الحكم الأول، وقضى ببراءته.

وسافر بعد إلى، «لاهور»، و«سيلكوت» ليخطب داعياً إلى مذهبه، فأصدر العلماء هنالك منشوراً ينصحون فيه الناس بأن لا يستمعوا إلى خطبه، وخطب مرة واحدة، فثار الناس عليه بالإنكار، وحاولوا رميه بالحجارة، ولكنه كان ـ كما هو شأنه في هذه المواقع ـ محاطاً بالشرطة (البوليس)، فحموه حتى ركب القطار هارباً.

وفي سنة ١٩٠٥ أسس مدرسة دينية عربية في «قاديان» لتخريج دعاة عارفين بمقاصد نحلته، وفي هذه السنة سافر إلى «دهلي»، فقام العلماء في وجهه، ولم يتمكن من الخطابة في محل عام، إلا أن دعا طائفة إلى المنزل الذي يقيم فيه؛ ليبث بينهم مبادئ مذهبه، فلقي من بعض الحاضرين معارضة وإنكاراً، فغادر المدينة خائباً.

وعند عودته من «دهلي» مر على بلد «أمرتسر»، وعزم على إلقاء خطبة في قاعة المحاضرات، وجاء العلماء يحذرون الناس من الاستماع إليه، ولما

دخل قاعة المحاضرات، وأخذ يخطب، قدم له أحد أتباعه قدح شاي، وكان الاجتماع في نهار رمضان، فأخذ منه الرشفة الأولى، فصاح الحاضرون بالإنكار عليه، فأجاب بأنه مسافر، وقد رخص للمسافر الفطر في رمضان، ووقع عقب هذا هياج، فانقطع عن الخطابة، وانصرف في حماية الشرطة (البوليس)، واضطر إلى مغادرة المدينة.

وفي سنة ١٩٠٥ زعم أنه أوحي إليه أن أجله قد قرب، وكتب الكتاب المعروف عندهم بالوصاية، ولكن أجله امتد بعد هذا نحو ثلاث سنين، وفي هذه السنة زعم أنه أوحي إليه بإنشاء مقبرة خاصة لأتباعه، وفرض على من يريد الدفن فيها أن يهب لخزنتهم ربع ماله.

وفي سنة ١٩٠٧ قامت حركة وطنية في «البنجاب»، فانحاز غلام أحمد إلى جانب الحكومة، وأذاع منشوراً دعا فيه أتباعه إلى موالاة الحكومة ومساعدتها على إخماد الحركة الوطنية، ففعلوا.

وفي هذه السنة انعقد مؤتمر الأديان في «لاهور»، وحضره مندوبو الديانات، وبعث غلام أحمد مقالاً ليقرأ في المؤتمر، ولما قام أحد أتباعه لقراءته، قابله جماعة من الحاضرين بالازدراء، ورموه بكلمات الاستهزاء.

وفي سنة ١٩٠٨ ذهب إلى «لاهور»، وعندما وصل إليها، أنكر المسلمون مجيئه، وصار العلماء يجتمعون كل يوم بعد صلاة العصر في براح حول منزله، ويلقون خطباً يحذرون فيها الناس من الاغترار بمزاعمه.

وكان غلام أحمد مبتلى بإسهال مزمن، فاشتد عليه وهو في «لاهور»، ومات في مايو من هذه السنة ١٩٠٨ الموافقة لسنة ١٣٢٦ هجرية، ونقل إلى «قاديان»، ودفن بها، وانتخب أتباعه لرياسة المذهب حكيم نور الدين حتى

مات سنة ١٩١٤، فانتقلت الرياسة إلى بشير الدين محمود ابن واضع هذه النحلة غلام أحمد، وهو رئيسهم لهذا العهد.

*** ادعاء غلام أحمد الوحي والنبوة والرسالة:**

يزعم غلام أحمد أنه ينزل عليه الوحي، ومما قاله في الخطبة الإلهامية: «هذا هو الكتاب الذي ألهمت حصة منه من رب العباد في يوم عيد من الأعياد».

ثم قال: «بل هي حقائق أوحيت إليّ من رب الكائنات». ثم قال: «وقد أوحي إليّ من ربي قبل أن ينزل الطاعون أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا».

ولم يدَّع أحد من الصحابة، ولا من السلف الصالح أنه يأتيه الوحي من الله، ولو اقتصر غلام أحمد على دعوى الوحي، لقلنا: لعله يريد من الوحي: الإلهام؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[النحل: ٦٨].

ويبقى النظر فيما زعم من الإلهام، فإن كان موافقاً لنصوص الدين أو أصوله، سكتنا عنه، وإن كان مخالفاً لشيء منه، رددناه عليه. ولكنه يصرح في كتبه بأنه نبي ورسول، قال في الخطبة الإلهامية: «أرأيتم إن كنت من عند الله، ثم كذبتموني، فما بالكم أيها المكذبون». وقال: «إنكم ترون كيف تنصر الناس، وارتدوا من دين الله؛ ثم تقولون: ما جاء مرسل من عند الله، مالكم كيف تحكمون». وقال: «فأنعم الله على هذه ـ يعني: أمة الإسلام ـ بإرسال مثيل عيسى، وهل ينكر بعده إلا العمون». وقال: «وكان عيسى علماً لبني إسرائيل، وأنا علم لكم أيها المفرطون»!.

وفي منشور لأصحابه عنوانه: «شرائط الدخول في جماعة الأحمدية» ما نصه: «إن المسيح الموعود ـ يعني: غلام أحمد ـ كان مرسلاً من الله تعالى،

وإنكار رسل الله تعالى جسارة عظيمة قد تؤدي إلى الحرمان من الإيمان».
وقال أحد دعاتهم أبو العطاء الجلندهري: «كلّم الله أحمد ـ يعني: غلام أحمد ـ بجميع الطرق التي يكلم بها أنبياءه؛ لأن الأنبياء في وصف النبوة سواء[1]».

يدّعي غلام أحمد النبوة والرسالة غير مبال بالقرآن والسنّة وإجماع الأمة، ففي هذه الأصول الثلاثة حجج على أن المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ هو آخر النبيين والمرسلين.

أما القرآن، ففي قوله تعالى:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[الأحزاب: ٤٠].

فعلى قراءة (خاتم) بكسر التاء، يكون وصفاً له ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأنه ختم الأنبياء؛ أي: لا ينال أحد بعده مقام النبوة، فمن ادعاها، فقد ادعى ما ليس له به من سلطان. وقراءة (خاتم) بفتح التاء ترجع إلى هذا المعنى؛ فإن الخاتم ـ بالفتح ـ كالخاتم ـ بالكسر ـ يستعمل بمعنى: الآخر، ذكر هذا علماء اللغة، وجرى عليه المفسرون المحققون، وجاءت السنة الصحيحة مبينة لهذا المعنى، ففي «صحيح الإمام البخاري» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: أنه قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي، خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي».

وفي «صحيح البخاري» عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلاّ وضعت

---

(١) «البشارة الإسلامية الأحمدية».

هذه اللبنة»، قال: «فأنا اللبنة، وأنا خاتـم النبيين». وفي رواية مسـلم عن جابر رضي الله عنه: «فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء». وروى الإمام أحمد بسنده إلى أبي الطفيل: أن رسول الله ﷺ قال: «لا نبوة بعدي إلا المبشرات»، قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الحسنة ـ أو قال ـ الرؤيا الصالحة». إلى غير هذا من الأحاديث وآثار الصحابة الصريحة في أن النبوة انتهت بنبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وعلى هذا انعقد إجماع المسلمين، وأصبح بمنزلة المعلوم من الدين بالضرورة.

قال الإمام ابن كثير عند تفسير: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠]: «وقد أخبر الله تعالى في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه: أنه لا نبي بعده؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده، فهو كذّاب أفاك دجال مضل». وقال الألوسي في «تفسيره»: «وكونه ﷺ خاتم النبيين مما نطق به الكتاب، وصدعت به السنّة، وأجمعت عليه الأمة. فيكفر مدّعي خلافه».

وما كان لمسلم أن يؤول القرآن والسنّة الصحيحة تأويل من لا ينصح لله ورسـوله ليجيب داعية هوى في نفسـه، وانظروا إلى غلام أحمد وطائفته كيف تخبطوا في تأويل: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وما يبينها من الأحاديث المحكمة، ولا داعي لهم إلى هذا التخبط، إلا أن رجلاً من «قاديان» استحب الهوى على الهدى، فادعى أنه نبي مرسل، وملأ فمه باللغو وقول الزور، والتملق لغير المسلمين.

ومن وجوه تأويله حمله لحديث: «لا نبي بعدي» على معنى أنه لا يأتي بعده نبي من غير أمته.

وهذا الوجه اختلسه من متنبىء آخر يقال له: إسحاق الأخرس ظهر في

أيام السفّاح؛ فإنه زعم أن ملكين جاءاه وبشراه بالنبوة، فقال لهما: وكيف ذلك وقد أخبر الله تعالى عن سيدنا محمد أنه خاتم النبيين؟ فقالا له: صدقت، ولكن الله أراد بذلك أنه خاتم النبيين الذين هم على غير ملته وشريعته.

وليس الوحي عند هذه الطائفة بمقصور على زعيم نحلتهم، بل يدَّعون أن أتباعه أيضاً ينزل عليهم الوحي، ومما رأيناه في منشور وضعه رئيسهم لهذا العهد، وترجمه عبد المجيد كامل، وطبع في مصر: «أن طريق الوحي لا يمكن أن يسد في وجوه الناس»، وفي هذا المنشور: «أن المهدي والمسيح قد ظهر في الهند بمحل يقال له: «قاديان»، وأنه يوجد الآن آلاف من حواريه يستمعون الوحي الإلهي».

ومما زعم غلام أحمد أنه أوحي به إليه: «وإني جاعلك للناس إماماً ينصرك رجال نوحي إليهم».

بأي لسان يدّعون الوحي، وهذه مقالات غلام أحمد ورسائله طافحة بأقوال منقطعة عن الحكمة، عارية عن الصدق، والمعقول منها قد قاله أناس، أو قالوا مثله، أو خيراً منه، ولم يخطر على بالهم ادعاء أنه وحي كلمهم به الله تعالى، أو نزل عليهم به الروح الأمين! ومن خطله المكشوف: أنه يأتي إلى آيات أو جمل من القرآن المجيد، فينقلها كما هي، ويضم بعضها إلى بعض في صحائف، ويزعم أنها وحي نزل عليه.

ينكرون أن النبي ﷺ خاتم النبيين، ويوردون على هذا شبهاً لا تزن عند أولي العلم جناح بعوضة، كما استدلوا بقوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[الحج: ٧٥].

متشبثين بأن قوله: ﴿يَصْطَفِى﴾ فعل مضارع، والمضارع للاستقبال.

ودفعُ هذه الشبهة أن الفعل الواقع في الماضي قد يعبر عنه بصيغة المضارع لمقتضيات بلاغية، منها: أن يكون المعنى موضع غرابة؛ فإن المضارع من جهة دلالته على الحال يتوسل به المتكلم البليغ إلى إخراج الحادث الغريب في صورة الواقع في الحال؛ ليبلغ تعجب المخاطب من وقوعه مبلغ تعجبه من الصورة البديعة في حال مشاهدتها. وعلى هذا الوجه ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩].

قال: ﴿فَيَكُونُ﴾، والموضع في الظاهر للماضي؛ لأن وجود إنسان من غير أب حادث غريب، فحاله يقتضي أن يعبر عنه بالمضارع؛ لإحضاره في ذهن المخاطب حتى كأنه مشاهد له.

ومن دواعي التعبير عن الماضي بصيغة المضارع: الإشارة إلى استمرار الفعل وتجدده فيما مضى حيناً بعد حين؛ فإن الاستمرار التجددي يستفاد من المضارع على ما جرى عليه استعمال البلغاء، وصيغة الماضي لا تعرج على هذا المعنى. فالتعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[الحج: ٧٥].

يدل على معنى زائد على أصل الاصطفاء الذي يدل عليه الماضي، ويقف عنده.

وذلك المعنى هو أن اصطفاء الرسل كان يتجدد، ويقع مرة بعد أخرى، والقرينة الشاهدة بأن ﴿يَصْطَفِى﴾ مراد منه الاصطفاء الواقع قبل نزول هذه الآية هي آية: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠]، والأحاديث المستفيضة في إغلاق باب الرسالة والنبوة.

فاستعمال المضارع موضع الماضي في كلام البلغاء خارج عن حد الإحصاء، وآيات الكتاب يفسر بعضها بعضاً، كما أن السنّة تبين الكتاب.

ويزعم غلام أحمد أنه رسول، وأنه هو المراد من الحديث الوارد في نزول ابن مريم حكماً عدلاً، وأخذ يمشي في تأويل ألفاظ الحديث على عوج، على أنه حاول في الخطبة الإلهامية صرف الناس عن العمل بالأحاديث النبوية، وحرّف كثيراً من آيات القرآن المجيد على زعم أنه نزلت لتخبر بظهوره، وتنوه بشأنه، منها قوله في آية:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]:

«هذه بشارة بأنه سيكون في هذه الأمة الإسلامية رجل في درجة مريم الصديقة، ثم ينفخ فيه روح عيسى، فإذا مريم يخرج منه عيسى؛ أي: أن الرجل ينتقل من صفاته المريمية إلى صفاته العيسوية، فكأنما كينونته المريمية أنتجت كينونته العيسوية، وبهذا المعنى يسمى ذلك الرجل: ابن مريم).

ولا نريد أن نكثر في هذا المقام من ذلك اللغو والهزل، إلا أن تدعو الحاجة إلى زيادة الكشف عن فضائح هذه النحلة من بعد.

بدا لغلام أحمد أن يدّعي النبوة والرسالة، وخشي خيبة دعوته حتى لدى العامة الذين يأبون الخروج من الإسلام إلى نحلة تعلن أنها ناسخة له، فادّعى أن رسالته مؤيدة للإسلام، لا ناسخة لشـريعته، فقال في الخطبة الإلهامية: «أم يقولون: إنا لا نرى ضرورة مسيح ولا مهدي، وكفانا القرآن، وأنا مهتدون، ويعلمون أن القرآن لا يمسه إلا المطهرون، فاشتدت الحاجة إلى مفسر زكي من أيدي الله، وأدخل في الذين يبصرون».

قال هذا ليتألف الغافلين، ولما كانت في نفسه حاجات يريد قضاءها، وعرف أن هذه الحاجات ينبذها الكتاب والسنّة، حاول إسقاط السنّة من أصول الشريعة، وفتح بعد هذا لتأويل القرآن باباً من صنف الأبواب التي فتحها الباطنية من قبله، فأصبح في غنى عن ادعاء أنه جاء بشريعة مستقلة؛ إذ له أن يقرر هو وأتباعه ما تدعوهم إليه أهواؤهم، فإن قيل لهم: هذا يخالف نص الشارع الحكيم، أنكروا صحة النص، أو دخلوا إلى تأويله من الباب الذي دخل منه الباطنية وهم يمكرون.

*** زعمه أن له آيات على صدقه:**

قال غلام أحمد في الخطبة الإلهامية: «وإن تعدوا دلائل صدقي، لا تحصوها»، ولم نقف على شيء من هذه الدلائل إلا ما يشابه براءته من قضايا القذف التي كانت تقام عليه، أو نجاته من أذى العامة حيث يكون محاطاً بالشرطي، محروساً من الحكومة بقوة الحديد، وأراد أن يجعل دليل صدقه رواج دعوته عند طائفة الغافلين عن سبيل الحق، فقال في الخطبة الإلهامية: «ولو كان هذا الأمر والشأن من عند غير الله، لمزق كل ممزق، ولجمع علينا لعنة الأرض والسماء، ولأفاز الله أعدائي بكل ما يريدون».

وقد لقي كثير من الدعاوى المزورة مثلما لقيت دعوته أفراداً ضربت في نفوسهم الجهالة، فلا يقدرون مقام النبوة والرسالة، ولا يفرقون بين من يدعيها حقاً، ومن يدعيها وهو لا يرجو لله وقاراً، ولو كان رواج الآراء بين طائفة من البشر دليلاً على أنها حق، لكانت البهائية من المذاهب الرشيدة، والقاديانيون يعدونها كما يعدها المسلمون نحلة غاوية. وإن للباطل لصولة، حتى إذا أخذ أهل العلم بيد الحق، وأحكموا أساليب الدفاع عنه، تضاءل الباطل،

فإما أن ينقطع أثره، وإما أن يبقى شعار فئة كان لله في إيثارها الظلام على النور حكمة بالغة.

يذكر غلام أحمد في مؤلفاته: المباهلة، ويزعم أنها تجري بينه وبين بعض المنكرين عليه، فيكون الظفر له، ولسوء حظه سلك هذه الطريقة مع الأستاذ أبي الوفاء ثناء الله، فخسرت مباهلته، وتركها آية تنادي بخذلانه، ولكن بعض المكبين على الباطل في صمم، فهم لا يسمعون.

ضاقت الأرض على غلام أحمد عندما نهض الأستاذ العلامة مولوي ثناء الله لإبطال نحلته، ورمى بالحجج الدامغة، فكتب غلام أحمد دعاء طويلاً خاطب فيه الشيخ ثناء الله. وهذا هو:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]

حضرة المولوي ثناء الله. السلام على من اتبع الهدى، إن سلسلة تكذيبي جارية في جريدتكم «أهل الحديث» من مدة طويلة، أنتم تشهدون فيها أني كاذب دجال مفسد مغتر، ودعواي للمسيحية الموعودة كذب وافتراء على الله، إني أوذيت فيكم إيذاء، وصبرت عليه صبراً جميلاً، لكن لما كنت مأموراً بتبليغ الحق من الله، وأنتم تصدون الناس عني، فأنا أدعو الله قائلاً: يا مالكي البصير القدير العليم الخبير! تعلم ما في نفسي، إن كان دعواي للمسيحية الموعودة افتراء مني، وأنا في نظرك مفسد كذاب، والافتراء في الليل والنهار شغلي، فيا مالكي! أنا أدعوك بالتضرع والإلحاح أن تميتني قبل المولوي ثناء الله، واجعله وجماعته مسرورين بموتي، يا مرسلي! أدعوك آخذاً بحظيرة القدس لك أن تفصل بيني وبين المولوي ثناء الله: أنه من كان مفسداً في

نظـرك، كاذباً عندك، فتوفه قبـل الصـادق منا، ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

الراقم عبدالله الصمد
مرزا غلام أحمد المسيح الموعود
عافاه الله وأيد عزّه
ربيع الأول ١٣٢٥

وصدر هذا الدعاء في أول يوم من ربيع الأول ١٣٢٥ (١٥ أبريل ١٩٠٧)، وقد مات غلام أحمد بعد هذا الدعاء بنحو سنة، أما الأستاذ ثناء الله، فهو ما زال يتمتع بالسلامة لهذا العهد، وما زال يعمل للذود عن الدين الحنيف، والكشف عن فضائح تلك النحلة المزورة.

يعلم غلام أحمـد أن يده فارغـة مما يصلح أن يكون دليلاً أو شـبه دليل على نبوته، فانتهز ظهور الطاعون بالبنجاب فرصة لاصطياد الغافلين المستضعفين، فزعم أنه أوحي إليه بأن هذا الطاعون ينجو منه من يؤمنون به بقلب خالص، أو يكفون في الأقل عن تكذيبه وذمه، ويحملون له في قلوبهم تعظيماً[1]، قال هذا ليستهوي الأغبياء الذين شأنهم الانقياد إلى من يعدهم بالنجاة من كل بلاء هو نازل بهم، وإن لم يعدهم إلا غروراً.

*** غروره وتفضيله نفسه على بعض رسل الله الأكرمين:**

ملك غـلام أحمد الغرور والتعاظم، فانهال يحثو لنفسـه من الإطراء ما شاء، ومما أورده في كتاب الاستفتاء على أنه خطاب له من الله تعالى: «أنت

(١) من مقال له نشر في كتاب «تعاليم المسيح الموعود».

مني بمنزلة توحيدي وتفريدي، أنت مني بمنزلة عرشي، أنت مني بمنزلة ولدي». وقال في مقال له ورد في كتاب «أحمد رسول العالم الموعود»: «فالواقع أن الله القدير قد أبلغني أن مسيح السلالة الإسلامية أعظم من مسيح السلالة الموسوية»، ويعني بمسيح السلالة الإسلامية: نفسه، فغلام أحمد يزعم أنه أفضل من عيسى ـ عليه السلام ـ. ومما ادعى أن الله خاطبه به: «إني خلقتك من جوهر عيسى، وإنك وعيسى من جوهر واحد، وكشيء واحد[1]».

ووقع في يدي كتاب لغلام أحمد نقله أحد أتباعه إلى العربية، فوجدته قد تحدث فيه عن الوحي، ثم ذكر مقاماً: «يشافه الله فيه العبد بالكلام، وينطق في باطنه، ويتخذ من جنانه عرشه، ويعطيه كل نعمة مما كان قد أعطاها الأولين». ثم قال: «إنني لأكون قد ظلمت بني نوعي إن لم أعلن لهم في هذه الساعة أنني على ذلك المقام الروحي الذي وصفته هذا الوصف، وأن الله قد أعطاني من المكالمة المرتبة التي ذكرتها بالتفصيل».

وذكر الشيخ ثناء الله جملاً صدرت من غلام أحمد مأخوذة من كتبه، وله مؤلفات بالأوردية والفارسية، ومن هذه الجمل قوله: «اتركوا ذكر ابن مريم؛ فإن غلام أحمد خير منه». ومنها قوله: «ما أعطاه الله لكل نبي واحداً واحداً أعطاه لي جميعاً». ومنها قوله: «قال الله: إنّ أمْرَكَ إذا أردت شيئاً أن تقول له: كن فيكون». ومؤلفاته مملوءة بمثل هذه الجمل الطاغية.

*** تكفيره لمن لا يؤمنون برسالته:**

يجعل غلام أحمد المسلمين الذين لا يقبلون دعوته كفاراً، ويمثلهم

---

(١) «حمامة البشرى».

في كتبه باليهود، ومما قال في الخطبة الإلهامية: «فإن نبينا المصطفى كان مثيل موسى. وكانت سلسلة خلافة الإسلام كمثل سلسلة خلافة الكليم ـ عليه من الله السلام، فوجب من ضرورة هذه المقابلة والمماثلة أن يظهر في آخر هذه السلسلة مسيح كمسيح السلسلة الموسوية؛ ويهود كاليهود الذين كفروا عيسى وكذبوه». وكرر هذا المعنى، وهو تمثيل نفسه بعيسى ـ عليه السلام ـ، وتمثيل المسلمين الذين ازدروا دعوته باليهود في كتبه كثيراً.

وفي نشرتهم «شرائط الدخول في الأحمدية» التصريح بأن المسلمين الذين يكذبون غلام أحمد أحط درجة من المنافقين. وفي نص عبارتهم: «وكذلك لا يجوز لأحمدي أن يصلي على غير أحمدي. فكأنه بفعله يشفع إلى الله لمن أصر على مخالفة المسيح وإنكاره، ومات عليه. مع أن الله يمنع أن يصلى على المنافقين. فكيف على من كفر بمأمور من الله؟». وقد يصف غلام أحمد المسلمين بأنهم أعداء لأهل مذهبه؛ كما قال في مقال[1] يخاطب فيه أتباعه: «فاذكروا دائماً أن الحكومة الإنكليزية هي رحمة وبركة لكم. فهي الدرع التي تقيكم. إن الإنكليز خير ألف مرة من المسلمين الذين هم أعداؤكم»!.

وعلم غلام أحمد أن علماء الإسلام هم الذين يعرفون سريرته. ويحذرون الناس من فتنته، فكان يكثر من قذفهم، ويحثّ أتباعه على بغضهم، قال في مقال له نشر في كتاب «تعاليم المسيح المنتظر»: «ونصيحتي لجميع أتباعي أن يبغضوا المولوية ـ علماء المسلمين ـ الذين يريقون الدم الإنساني تحت ستار الدين، ويأتون من الآثام أسوأها وراء حجاب التقوى، وعلى

---

(١) ورد هذا المقال في كتاب لهم يسمى: «أحمد رسول العالم الموعود».

أتباعي أن يقدروا هذه الحكومة الإنكليزية، ويظهروا لها شكرهم واعترافهم بالجميل، بالولاء وحسن الطاعة».

ويرى (رسول آخر الزمان) غلام أحمد بعده من المسلمين نعمة تستحق الشكر. كتب الدكتور زكي كرام من «برلين» إلى جريدة «حضرموت» بجاوة مقالاً تحدث فيه عن القاديانية في برلين، ونشرته في العدد الصادر يوم السبت ٨ المحرم سنة ١٣٥١، ومما قال في هذا المقال: إنه زار هو والأمير شكيب أرسلان إمام الجامع الذي بنته هذه الطائفة ببرلين. فأطلعهم الإمام على كتاب لغلام أحمد نفسه، فنقل منه الأمير جملاً، ومن هذه الجمل: أنه ـ أي: غلام أحمد ـ «يحمد الله حيث ولد تحت راية إنكليزية وبعيداً من المسلمين»!.

*** القاديانية فرقتان:**

كانت القاديانية في أيام غلام أحمد وأيام خليفته نور الدين مذهباً واحداً؛ غير أنهم في آخر حياة نور الدين ابتدأ شيء من الاختلاف يدبّ فيما بينهم، وعندما مات نور الدين، انقسموا إلى شعبتين: شعبة «قاديان»، ورئيس هذه الشعبة محمود بن غلام أحمد، وشعبة «لاهور»، وزعيمها محمد علي مترجم القرآن إلى اللغة الإنكليزية. أما شعبة قاديان، فأساس عقيدتها أن غلام أحمد نبي مرسل، وأما شعبة «لاهور»، فظاهر مذهبها: أنها لا تثبت النبوة لغلام أحمد، ولكن كتب غلام أحمد مملوءة بادعاء النبوة والرسالة، فماذا يصنعون؟.

ولشعبة «لاهور» ضلالة يبثونها في كتبهم: هي إنكار أن يكون المسيح ـ عليه السلام ـ ولد من غير أب؛ وزعيم هذه الشعبة محمد علي يصرح بأن

عيسى ـ عليه السلام ـ ابن يوسف النجار. ويحاول تحريف بعض الآيات لتوافق هذه العقيدة[1].

ونشرت مجلتهم «المجلة الإسلامية» التي تصدر في «ووكنج» بإنكلترة مقالاً للدكتور (مركوس)، وفي هذا المقال: «أن محمداً ـ عليه السلام ـ يصرح بأن يوسف أبو عيسى ـ عليه السلام ـ»، ولم يعلقوا على هذه الجملة كلمة؛ لأنها جاءت على وفق نحلتهم.

وكذلك كان محمد علي في ترجمته للقرآن يذهب مذهب الترجمة الحرفية، ثم يضع في أسفل الصحيفة حواشي يؤول فيها ما ترجمه حرفياً، ويرتكب في تأويلها وجوهاً يحذو بها حذو نحلتهم؛ كما فعل في قوله تعالى:

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾[آل عمران: ٤٩].

فقد نحا في تأويلها نحو منكري المعجزات؛ وتصرف في معانيها تصرف من لا يدري أن القرآن قد نزل بلسان عربي مبين.

*** وجوب مقاومتهم، والتحذير من دعايتهم:**

للقاديانية حركة نشيطة في الدعوة إلى نحلتهم، ولما كانوا يقيمون هذه النحلة على شيء من تعاليم الإسلام، أمكنهم أن يدّعوا أنهم دعاة للإسلام، ولاسيما شعبة «لاهور» التي تعلن أن غلام أحمد مصلح ومجدد لا نبي، وقد أصبح الناس الذين لا يعرفون هذه النحلة يعتقدون أنهم دعاة للإسلام

---

(١) انظر كتابه: «عيسى ومحمد» (ص ٧٦).

بحق، وربما أثنوا على سعيهم، وعاتبوا من يكتب في تحذير المسلمين من أباطيلهم. ولو اقتصرت هذه الطائفة على نشر دعوتها بين قوم غير مسلمين، لخفّ علينا خطرها، وآثرنا الاشتغال بمجاهدة غيرها من المضللين والملحدين، ولكنهم طمعوا في أخذ الشعوب التي تدرس القرآن والسنّة، وتستضيء بهدايتهما، وراموا صرفها إلى الاعتقاد برسالة غلام أحمد وما يتبعها من ضلالات، فبعثوا بدعاتهم إلى سورية وفلسطين ومصر، وجدة والعراق، وغيرها من البلاد الإسلامية، وقد وجدت دعايتهم ـ على ما فيها من سخف ـ أحداثاً فرط أولياؤهم في تربيتهم على أدب الدين، فقبلوها غروراً.

يذكر القاديانيون: أن لهم دعاة في الصين والهند، والعجم والعراق، وجدة وسورية وفلسطين ومصر، وقرأنا في كتاب لهم مطبوع سنة ١٩٣٢: أن داعيتهم في مصر الشيخ محمود أحمد في شارع كذا، وقد رأيتم علماء الهند كيف قاوموا هذه الفئة، وما زالوا يقاومونها، وممن وصلتنا آثارهم في مقاومتها: علماء سورية، فقد كتبوا الرسائل في الرد عليها، وإيقاظ المسلمين لما يبثونه من آراء تقوض بناء العقيدة، وآراء تربي نفوس النشء على الرضا بالاستكانة والانقياد لكل يد تقبض على زمامهم انقياد الأعمى.

وها نحن أولاء قد كتبنا هذا المقال؛ ليحذر مسلمو مصر وغيرها من الأقطار الإسلامية فتنة هذه الطائفة حذرَهم من فتنة الطائفة البهائية، ولنا الأمل في علمائنا ووعاظنا أن يقعدوا لدعاة هاتين الطائفتين كل مرصد، ويعالجوا كل قلب اعتل بشيء من وساوسهما:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[العنكبوت: ٦٩].






تفنيد مذهب القاديانية

كتبنا في الجزء السابع من المجلد الثالث من «نور الإسلام»[1] مقالاً في نشأة النحلة القاديانية، وأوردنا فيه شيئاً من نزعات هذه النحلة الفاسدة، وأرينا القراء أنها نحلة مارقة من الدين، عاملة على تفويض أركانه تحت ستار اسم الدعوة إليه.

كتبنا ذلك المقال لنفتح أعين جماعات المسلمين على جانب مما يبيته غلام أحمد وأتباعه من شر، حتى لا يغتر أحد بما يزخرفونه من قول، أو بما يخلعونه على أنفسهم من ألقاب زائفة.

وقد عنيت بنشر هذا المقال صحف متعددة، وكان له ـ بتوفيق الله تعالى ـ أثر في إيقاظ من كانوا عن هذه النحلة في غفلة، حتى تبرأ منها فريق كانوا يحسبونها على شيء من الرشد، ونبذوها نبذ النواة. أما من جعل الله صدورهم ضيقة حرجة، فقد استغاثوا داعيتهم بفلسطين لعلهم يجدون عنده من قوة الجدل ما يذود عن ترهاتهم، ويستر فضائحهم، فكتب مقالاً شغل به صفحات كثيرة من أوراق يصدرونها لترويج مزاعمهم في البلاد العربية، ولم يزد في هذا المقال على أن اعترف ببعض ما عزوناه إلى نحلتهم من زيغ وإلحاد، وذهب ببعضه مذهب التأويل المنبوذ على البداهة، وقابل بعضه بالإنكار،

(١) سورة العنكبوت ـ الآية ٦٩.

على الرغم من أنه وارد في كتب كبيرهم الذي علمهم اشتراء الدنيا بالآخرة، أو في كتب بعض زعمائهم الذين يرونهم بمقربة من النبوة. وخيلت له نفسه أنه يعرف من بلاغة اللسان العربي ما يقوى به على الخوض في تفسير القرآن الكريم، وشرح حديث رسول الله ﷺ، فتخبط في مباحث لا يدري كيف يرِدُها، ولا كيف يصدر عنها.

وها نحن أولاء نرفع الستار عن جانب آخر من تزوير غلام أحمد، ونأتي إلى مقال داعيتهم، فنعرض على حضرات القراء قطعاً من زوره وقلة درايته؛ ليزدادوا علماً بأن القاديانية نحلة ملفقة من مزاعم لا تتصل بعقول هيأها الله تعالى للهداية، ولا تروج في نفوس أخذت من التعليم أو التهذيب ما فيه كفاية.

ابتدأ داعية القاديانية بمقدمة ساق فيها آيات نزلت في حق أنبياء الله الأكرمين، ومن يجحد نبوتهم من المبطلين، محاولاً تطبيقها على حال غلام أحمد، ومن يحذرون الناس من ضلاله المبين، ولا نعبأ بهذا التمثيل الفاسد؛ فإن ما كتبناه في نشأة نحلتهم، وما ضربناه من الأمثال على بهتان رئيسهم، يرد تلك المقدمة على عقبها خاسئة، ويحقق للقراء أن موقفنا في وجه غلام أحمد وأتباعه إنما هو موقف حزب الله في وجه مسيلمة وسجاح، وأمثالهما ممن يفترون على الله الكذب، ويدعون أنه يوحى إليهم، ولم يوح إليهم بشيء.

* خيبة مدعي النبوة:

قلنا في مقالنا السابق: إن مدعي النبوة قد يذهب فينقطع أثره، وقد يبقى لدعوته بين طائفة من الجاهلين أثر، فاندفع داعية القاديانية بعد هذا

مخالفاً للنصوص القرآنية، ويزعم أن كل من يدعي النبوة لا يمهله الله تعالى سنين دون أن يبيده، ولا تروج دعوته، ولو عند طائفة لا يكادون يفقهون حديثاً، وأخذ يسرد آيات من القرآن يضعها في غير مواضعها، ويضيف إليها من المعاني ما لا يصح أن يستنبط منها، فأورد قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[يونس: ٦٩].

وقوله تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[يونس: ١٧].

وقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾[هود: ٣٥].

وقوله تعالى:

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾[غافر: ٢٨].

وقوله تعالى:

﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[طه: ٦١].

وقوله تعالى:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

أورد داعية القاديانية هذه الآيات، وبنى عليها أن غلام أحمد ادعى النبوة، وبقي نحو ثلاثين سنة، ولم يأخذ الله منه باليمين، ولم يقطع منه الوتين، وأفلح في دعوته، فدعواه الوحي والنبوة إذن صادقة.

والواقع أن هذا الداعية لا يفهم لآيات الله معنى، ولا يعرف لسنن الله

في الخليقة حكمة، يدلنا القرآن والمشاهدة على أن الله تعالى قد يملي لبعض المبطلين، فيمد لهم في أعمارهم، أو يكثر أموالهم وأولادهم، أو يجعل لهم من صنف الجاهلين شيعة، ثم يأخذهم بعد هذا أخذ عزيز مقتدر، قال الله تعالى:

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤ ـ ٤٥]

وقال تعالى:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

ومما يدل على أن بعض المضلين قد يجد في الناس من يتبعون خطواته، ويهيمون في واد من ضلالاته، فتحق عليهم كلمة العذاب التي حقت على من قبلهم، قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧ ـ ٦٨].

وقوله تعالى:

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]

فبقاء بعض المضلين أمداً يعيثون فيه مفسدين، ويأخذون فيه بأعنة بعض الغافلين أو المغفلين، لا ينقض سنّة من السنن الكونية، ولا يخالف نصاً من النصوص الشرعية، وقد وافق داعية القاديانية على أن مدعي الإلهية قد ينتشر مذهبه في طائفة من الناس، ويترك من بعده أتباعاً، وجعل طائفة البهائية

من هذا القبيل، ويحصر سرعة الإهلاك وعدم انتشار الدعوة فيمن يدعي الوحي والنبوة، وقال في الفرق بين مدعي النبوة ومدعي الإلهية: إنّ نشر دعوة النبوة آية من آيات الله، ولا يعطى مفتر هذه الآية لئلا يلتبس أمر النبي بالمتنبي، أما مدعي الإلهية؛ فإنه يدعي أمراً مستحيلاً، فليس هناك موضع التباس.

وكلامه هذا يقتضي أن الله تعالى يهلك المفتري إذا كانت دعواه محتملة للصدق؛ لئلا يلتبس على الناس أمره، أما إذا قامت الأدلة الكافية على بطلان دعواه، فإنه يجوز إمهاله، وانتشار دعواه في طائفة من الناس.

وإذا كان داعية القاديانية يعترف بأن المضلل الذي تقوم الأدلة على افترائه قد تتأخر عقوبته إذ يلتبس المبطل بالحق، قلنا له: إن الأدلة القائمة على انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ قاطعة، فقد تظافر على ذلك الكتاب والسنّة المتواترة والإجماع، فيجوز أن يكون تأخير إهلاك غلام أحمد، وترك أباطيله تنتشر بين طائفة من الناس، من ناحية أن الأدلة القائمة على بطلان دعواه الوحي والنبوة قاطعة، وليس بينها وبين إزهاق روح تلك النحلة المارقة إلا أن يتناولها أهل العلم بالبيان، ويطاردوا بها دعاة القاديانية في كل زمان ومكان.

فإن قال داعية القاديانية: لو كانت الأدلة على انقطاع النبوة قاطعة، لم يخالف فيها غلام أحمد ومن انحدروا في ضلالته، قلنا: إنكم سلمتم أن الأدلة القائمة على افتراء رئيس البهائية قاطعة، وقد عمي طائفة البهائية عن هذه الأدلة، وليسوا بأوفر في الغباوة منكم نصيباً، ولا أحط منكم في الجهالة دركاً، ولا أشد منكم في اشتراء الدنيا بالدين تهالكاً.

فدعوى النبوة بعد رسول الله ﷺ معلومة البطلان من الدين بالضرورة،

فمن ادعاها لا يشتبه حاله بحال المحق البتة، فمن الجائز إذن أن يمهله الله تعالى كما يمهل مدعي الإلهية، ثم يسحته بعذاب في الدنيا أو الآخرة.

ولنعـد إلى بيان تخبطـه في الآيـات التي سـاقها على أن مدعي النبوة يعجل الله بعقوبته، ويمنع من انتشار دعوته فنقول:

أما قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[يونس: ٦٩].

وقوله تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[يونس: ١٧].

فإنما يدلان على أن المفتري على الله تعالى لا يفلح، وليس معنى عدم الفلاح بمقصور على إهلاكه بسرعة، وخيبة دعوته بحيث لا تجد سامعاً ـ ولو من الطبقة التي هي أقرب إلى الحيوان الأعجم منها إلى الإنسان ـ، بل يكفي في تحقيق عدم الفلاح: فوز أنصار الحق عليه في الدنيا، والتحاقه بزمرة الأشقياء في الأخرى.

ثم إن عدم الفلاح قد جعل في الآية الثانية مما يترتب على التكذيب بآيات الله، أفيبلغ الخلط في الحديث بهذا الداعية أن يدعي أن كل من يكذب بآيات الله بعجل الله بإهلاكه في الدنيا؟!.

وأما قوله تعالى:

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾[غافر: ٢٨].

وقوله تعالى:

﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[طه: ٦١].

فإن هاتين الآيتين لا تدلان على أكثر من أن الذي يكذب على الله تعالى يصيبه جزاء كذبه في الدنيا أو في الآخرة، ويجازى مع ذلك بالخيبة والحرمان من بلوغ المقصود والظهور على حماة الحق.

وقد أجرى الله تعالى على لسان غلام أحمد ما دل على سخافة عقله، وفساد سريرته، وألقى به في خذلان حال بينه وبين الفلاح في الدنيا، وما بعد الموت أشد وأبقى.

على أن الآية الثانية لم تقع خطاباً لنبي، وإنما هي من قول موسى ـ عليه السلام ـ خطاباً لقوم فرعون، وليس فيها ما يدل على أن الله تعالى يسرع بإهلاك مدعي النبوة كذباً، ويصرف عنه حتى القلوب التي تقضي فيها الشياطين ليلها ونهارها، وغاية ما تدل عليه: أن المفتري على الله يخيب في دعوته، ويصيبه جزاء فريته. وإن دعوة لا تروج إلا عند نفر لا يفرقون، أو لا يريدون أن يفرقوا بين الليل إذ يغشى، والنهار إذا تجلى، لدعوة خاسرة.

وأما قوله تعالى:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

فليس المراد منه تقرير أن الله يعجل بإهلاك كل من يدعي النبوة كذباً، ويقطعه عن الحياة لأول ما يدعي النبوة، حتى إذا ادعى أحد السخفاء النبوة، وعبث بعقول طائفة من البله، أو اشترى نفوس طائفة من البؤساء، وعاش نحو ثلاثين سنة، قلنا: هذا صادق في دعوى النبوة! وإنما نزلت هذه الآية في حق محمد ﷺ، وقد حفه الله تعالى بدلائل الصدق من كل جانب؛ بحيث لا يجد ذو الفطرة السليمة أو العقل الراجح إلى تكذيبه فيما يخبر به عن الله

تعالى منفذاً، فلو كان هذا الذي استقامت سيرته، وبهرت حكمته، وثبتت معجزته، قد تقوّل على الله تعالى بعض الأقاويل، لكان الضرر من تقوّله على الله تعالى عظيماً؛ إذ ليس في أيدي الناس ما من شأنه أن يدل على أن ما بلغه متقوِّل على الله، فكان من مقتضى الحكمة أن يأخذ الله منه باليمين، ثم ليقطع منه الوتين، أما من تقوم الأدلة الجلية على أنه كاذب؛ كغلام أحمد، فقد يملي له الله تعالى لحكم، منها: إظهار فضل العلماء الذين يجاهدون في إنقاذ الغافلين من مهالك دعوته الخاسرة.

هذا وقد ذكر الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى:

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾[الحاقة: ٤٥]:

أن المعنى: منعناه عن ذلك (أي: التقوّل) إما بإقامة الحجة؛ بأن كنا نقيض له من يعارضه في التقوّل، فيظهر للناس كذبه فيه، فيكون ذلك إبطالاً لدعواه، وهدماً لكلامه، وإما بأن نسلب منه القوة على التكلم بذلك القول.

ونحن نعلم أن الله تعالى قد نصب الأدلة على كذب غلام أحمد، وقيض له بعد ذلك طائفة من العلماء، فدفعوا باطله بالحجة، ونادوا في الناس بأنه مزمار من مزامير الشيطان، حتى ازداد كذبه وضوحاً، ودعوته خيبة، وسريرته افتضاحاً.

وقد أجرى الله على لسان غلام أحمد آيات تدل على أن ما يدعيه زور وبهتان، ومن هذه الآيات: أنه كان قد رغب في التزوج بفتاة من بنات بعض أقاربه، وسبق إلى ظنه أن والدها لا يحجم عن تزويجه إياها، فزعم أن اقترانه بها قد تقرر بطريق الوحي، ولكن أهل الفتاة امتنعوا من تزويجه إياها، وعزموا على أن يزوجوها برجل غيره، فلما بلغه هذا العزم، زعم أنه أوحي إليه مرة

أخرى: أن من يتزوجها غيره يموت في مدة لا تتجاوز ثلاث سنين، ثم تصير الفتاة زوجاً له، ولكن أهل الفتاة موقنون بأن غلام أحمد غير صادق فيما يزعم، فزوجوا ابنتهم من رجل مسلم يدعى: (ميرزا محمد سلطان)، ودامت العشرة بين الزوجين، واستمرا في حياة، وقد مات القادياني في ٢٦ من مايو سنة ١٩٠٨، وبقي محمد سلطان يعيش مع زوجته عيشة راضية إلى ما بعد سنة ١٩٢٠.

ووقع غلام أحمد في بهتان آخر؛ إذ زعم في تأليفه المسمى: «إعجاز أحمد»: أن من علامات صدقه سير القطار بين الحرمين الشريفين، فقال: شهدت السماء والأرض على صدقي، ولكن أكثر الناس لم يقبلوني، أنا الذي عطلت الإبل، وصدق الخبر الغيبي: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾[التكوير: ٤] في وقته، وأيضاً صدق الحديث: «ليتركن القلاص، فلا يمشي عليها أحد»، حتى إن منشئي جرائد العرب والعجم كتبوا في جرائدهم: أن القطار الذي يجري بين مكة والمدينة من علامات المسيح الموعود.

يقول هذا، وهو لم يدخل الحرمين الشريفين، ولو لأداء فريضة الحج، والإبل لم تعطل في وقته، والقطار لم يسر بين مكة والمدينة في وقته، بل إلى هذا اليوم.

*** انقطاع النبوة بعد رسول الله ﷺ:**

لنا أن نكتفي بسوق الشواهد على أن غلام أحمد بعيد من النبوة والصلاح بعد الثرى من الثريا. ولنا أن نكتفي من هذه الشواهد ببعض أقوال صدرت منه، فجاءت تضرب لسخافة الرأي وظلمة القلب أوضح مثال. ولسنا بعد هذا في حاجة إلى محاورة أتباعه في أن النبوة بعد النبي ﷺ منقطعة أم باقية؛ إذ على

فرض بقائها لا يتصور ذو عقل أن يكون من مظاهرها رجل يقول ما لم يقع، وما لا يقع. وكيف يحوز النبوة من لا يتعفف عن الكذب على المخلوقين؟.

وإذا خرجنا في مجادلة القاديانية عن حديث نبوة رئيسهم المزيفة إلى بحث انقطاع النبوة من أصلها، فلأن هذه الطائفة لا تفتأ تشغل ألسنتها بدعوى أن النبوة لم تنقطع، فحق علينا تذكير المسلمين بأن دعواهم هذه لا تلتقي مع حقيقة الدين الحنيف في نفس واحدة.

أوردنا في المقال السابق نبذة من أدلة انقطاع النبوة بعد الرسول الأعظم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ومن هذه الأدلة قوله تعالى:

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقلنا: إن الخاتم بمعنى: الآخِر، وهذا هو المعنى الذي يذكره علماء اللغة والتفسير لهذه الكلمة، ففي «لسان العرب»: وختام القوم وخاتِمهم وخاتَمهم: آخرهم، والخاتِم والخاتَم من أسماء النبي ﷺ، وفي التنزيل العزيز:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

أي آخرهم. وأما التفسير، فلم نر مفسراً يذكر في بيان ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ معنى غير معنى الآخِر، ووردت الأحاديث مؤيدة لهذا المعنى، وسقنا منها في ذلك المقال جملة، وهي لا تقصر عن درجة المتواتر.

ومن الأحاديث الصريحة في هذا المعنى: ما رواه أنس بن مالك ﷺ، قال: قال ﷺ: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي»، فشق ذلك على الناس، فقال: «ولكن المبشرات»، قالوا: يا رسول الله! وما المبشرات؟ قال: «رؤيا المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة».

ومنها: حديث عبدالله بن عمر، وهو: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع، فقال: «أنا محمد النبي الأمي ـ ثلاثاً ـ ولا نبي بعدي».

ومنها: حديث أبي هريرة: «وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبوة»، إلى غير هذا من الأحاديث الصريحة الصحيحة المختلفة الأسانيد.

وبعد هذه الأحاديث إجماع الأمة على أن من ادعى النبوة بعد رسول الله، فهو من الضالين المضلين، قال الإمام ابن كثير في «تفسيره»: «قد أخبر الله تعالى في كتابه، ورسوله ﷺ في السنّة المتواترة عنه: أنه لا نبي بعده؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده، فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل». وذكر بعض من ادعوا النبوة؛ كالأسود العنسي، ومسيلمة، ثم قال: «فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها». وقال الإمام ابن عطية في تفسير آية: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠]: هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خلفاً وسلفاً متلقاة على العموم التام، مقتضية نصاً أن لا نبي بعده ﷺ. وقال ابن حزم: «فكيف يستجيز مسلم أن يثبت بعده ـ عليه السلام ـ نبياً في الأرض، حاشا ما استثناه رسول الله ﷺ في الآثار المسندة الثابتة في نزول عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ في آخر الزمان».

وقال أبو حيان في تفسيره «البحر»: «ومن ذهب إلى أن النبوة مكتسبة لا تنقطع، أو إلى أن الولي أفضل من النبي، فهو زنديق».

*** دفع شبهة يتشبث بها القاديانية:**

أورد داعية القاديانية آيات من القرآن الحكيم زاعماً أنها تدل على عدم انقطاع النبوة، منها: ثلاث آيات وردت في إرسال الله الرسل، واصطفائه لهم،

وجاء التعبير فيها بصيغة المضارع، وهي قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[الحج: ٧٥].

وقوله تعالى:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[آل عمران: ١٧٩].

وقوله تعالى:

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾[الأعراف: ٣٥].

فقال في الآية الأولى: إنها تقتضي استمرار الاصطفاء دائماً، وقال في الآية الثانية: إنها تدل على أن الله يجتبي من رسله من يشاء، وقال في الآية الثالثة: إنها صريحة في بيانها.

كنا قد تعرضنا في المقال السابق لهذا الوجه من تمويههم، وقصرنا البحث على آية:

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[الحج: ٧٥].

فقلنا: أما المضارع في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى﴾، فمحمول على الماضي، واختيار صيغة المضارع للدلالة على أن اصطفاء الله للرسل كان يتجدد حيناً فحيناً، فكتب داعية القاديانية منكراً استعمال المضارع في الاستمرار للماضي فقط، وهذا إنكار منه لمعنى قرره فحول علماء البلاغة؛ كصاحب «المفتاح»، والسيد الجرجاني، والسعد التفتازاني، ولم ينازعهم فيه أحد ممن ينظر في العلم بشيء من العقل.

فالحق أن المضارع يستعمل للدلالة على تجدد الفعل في الماضي، ولاسيما الفعل المتصل بزمان الخطاب؛ كاصطفاء الرسل وإتيانهم، فإن هذه الآيات قد نزلت والوحي الذي تتحقق به الرسالة لم يزل جارياً، والأحكام

التي تنتظم بها الشريعة ويكمل بها الدين ما زالت تنزل على حسب ما تقتضيه الحكمة، وليس استعمال المضارع للدلالة على التجدد في الماضي مختصاً بحال اقترانه بلفظ: «كان»، بل المدار على وجود قرينة تومئ إلى أنه مستعمل في هذا المعنى، ولا فرق بين أن تكون القرينة لفظية أو معنوية، متصلة باللفظ أو منفصلة عنه، وقد صرح طائفة من أئمة البلاغة بأن المضارع يستعمل في الماضي لقصد الدلالة على استمرار الفعل فيما مضى وقتاً فوقتاً. ومن الشواهد التي ساقوها على هذا قوله تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾[الحجرات: ٧].

فقالوا: إن المضارع ـ يعني: قوله: ﴿يُطِيعُكُمْ﴾ مستعمل في الماضي للدلالة على استمرار الإطاعة فيما مضى وقتاً فوقتاً، وكلمة: «لو» أفادت هذا الاستمرار التجددي الذي دل عليه المضارع.

فالبيانيون قرروا استعمال المضارع للدلالة على تجدد الفعل في الماضي، ولم يقصروه على موضع، بل جعلوا مدار صحته قيام القرينة، ولا نطيل في الاستدلال على أن المضارع يستعمل لإفادة التجدد في الماضي، إذ يكفي فيه إجماعهم على أن المضارع يستعمل للفعل الماضي خاصة، ومن ذا يستطيع أن ينكر أن المضارع في قوله تعالى:

﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾[يوسف: ٣٦].

وقوله تعالى:

﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾[يوسف: ٣٦].

وقوله تعالى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾[البقرة: ١٢٧].

مستعمل في فعل مضى لوجه من البلاغة، وما على المعبر بالمضارع عن الفعل الماضي سوى أن يقيم الدليل على ما يريد من الصيغة، وقد قلنا في المقال السابق: إن الأدلة التي تدعونا إلى حمل الاصطفاء في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى ﴾[الحج: ٧٥] على ما كان يتجدد في الماضي، قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[الأحزاب: ٤٠]، والأحاديث الصريحة في أن لا نبي بعد محمد ﷺ.

واعترض داعية القاديانية جعل آية ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ مبينة لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى ﴾، فقال: كلنا يعرف أن قرينة الكلام ما يصاحبه ويدل على المراد به، وأن آية: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى ﴾ مكية، وآية: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ مدنية.

وجواب هذا: أن تأخير آية ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ لا يمنع من أن تعد بياناً للمراد من قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى ﴾. أما على مذهب من يجيز تأخير البيان عن وقت الخطاب، فالأمر واضح؛ إذ مقتضاه أن يدل المضارع حال الخطاب على أن اصطفاء الرسل شأن من شؤون الخالق ـ جلّ وعلا ـ، فيسقط به اعتقاد من ينكر بعثة الرسل، أو ينكر أن يكون في البشر رسول، ويثبت أن الله تعالى قد بعث رسلاً من البشر، وأن محمداً ﷺ حين ادعى الرسالة لم يدع أمراً يخالف حكمة الخالق، ويبقى صرف اصطفاء الرسل عن المستقبل إلى أن تظهر الحاجة إلى تعليم الناس أن لا نبي بعد محمد ﷺ، وأما على مذهب من يمنع تأخير البيان عن الخطاب، فنعتمد أن يكون لدى من تلقوا آية: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى ﴾ عند نزولها دليل من حديث رسول الله ﷺ يصرفها عن المستقبل، وجاءت آية: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ مؤيدة للحديث، وورود الآية بعد الحديث لا يمنع من عدها في جملة ما يبين الآية الأولى،

وما زال كبار الأئمة يسمّون المتأخر: بياناً لما سبقه بمدة، كما جعلوا إعطاء سلب القتيل للقاتل في الحرب مخصصاً لقوله تعالى:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾[الأنفال: ٤١].

وهذه الآية نزلت في غزوة بدر، والحديث ورد بعد هذه الغزوة بزمن غير قليل.

وقال داعية القاديانية يحاول رد ما ذكرنا من أن المضارع في آية: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي﴾[الحج: ٧٥] مصروف عن المستقبل: «إن الآية تبين اصطفاء الله رسلاً من الجنسين: الملائكة، والناس، فإن كان يصطفي بمعنى اصطفى، ويلزم منه أن لا يصطفي الله رسلاً بعد نزول هذه الآية من الناس، للزم أن لا يصطفي الله رسلاً من الملائكة أيضاً، وإذا كان هذا صحيحاً، فهل للمشايخ أن يقولوا لنا: من أنزل آية: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي﴾ إلخ وغيرها من السور التي نزلت بعدها على قلب الرسول ﷺ؟ أجبريل أم لا؟».

أليس في هذا الهذيان شاهد على أنا نخاطب من لا يفقه للكلام العربي معنى، ولا يعرف للمنطق وجهاً؟! فنحن إذا فهمنا الاصطفاء في الآية على ما كان يقع فيما مضى، فللأدلة القائمة على أن الله لا يبعث بعد محمد ﷺ رسولاً من البشر، ولم نقل: إن الآية دليل على أن الله لا يبعث رسولاً، حتى يقال: إننا نفينا إرسال الله الملائكة في أمر يدبره، وغاية الأمر: أن إرسال الملائكة بعد هذا الخطاب يبقى مسكوتاً عنه، فيرجع في إثباته أو نفيه إلى الأدلة، ولكن داعية القاديانية لا يفرق بين قولك: إن الآية لا تدل على بقاء الرسالة في البشر، وهو موضع حديثنا، وبين قولك: إن الآية تدل على انقطاع إرسال الله رسلاً من الملائكة أو البشر، وهذا ما لم نقله، فداعية القاديانية اشتبه

عليه إبطال استدلالهم بالآية على أن الله يصطفي رسلاً بعد بعثه أفضل الخليقة، بالاستدلال بها على نفي اصطفاء رسل من البشر أو الملائكة، وليس هذا الاشتباه على أمثاله بغريب.

وأورد داعية القاديانية مستدلاً على ما يزعم من عدم انقطاع النبوة قوله تعالى:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ١٢٤].

فقال: «وعد الله في هذه الآية بجعل الإمامة في ذرية إبراهيم ما عدا الظالمين منها، فهل يظن المشايخ أن ذرية إبراهيم كلها صارت في زمرة الظالمين، لاسيما الأمة المحمدية، فحرمت من الإمام الموعود بها؛ أي: من النعمة الاجتماعية، ولا يظنن أحد من المشايخ ـ لأن غيرهم لا يتطرق إليه هذا الظن ـ أن المراد من الإمامة بالصلاة أو غيرها دون النبوة؛ لأن هذه الإمامة إمامة إبراهيمية، وهي النبوة دون شك كما كان هو إماماً بها ـ عليه السلام ـ، فالنبوة باقية في ذرية إبراهيم سوى الظالمين».

هذا ما يقوله الداعية في الاستدلال بهذه الآية على عدم انقطاع النبوة، ونحن لا نمانع من أن يكون المراد من الإمامة: النبوة، ولكننا نفهم الآية على معنى أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد طلب من الله تعالى أن يجعل من ذريته أئمة؛ أي: أنبياء، إذ قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، ولم يقل: (وذريتي)، فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. وفي هذا عدة له بأنه سيجعل من ذريته غير الظالمين أنبياء؛ فإنه نفى أن ينال العهد ـ الذي هو الإمامة ـ الظالمين، ولو قال في الجواب: «نعم»، لأفاد أنه سيجعل من ذرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ

أنبياء، ومن غير دلالة على أنهم سيكونون من المؤمنين، ولو قال في الجواب: «ينال عهدي المؤمنين» ـ مثلاً ـ، لم يكن فيه نص على أن الظالمين ليسوا بأهل للإمامة، فقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ١٢٤] نص على أن الظالمين ليس بأهل للإمامة، ويؤخذ منه ـ على طريق دلالة المفهوم ـ: أن النبوة تنال المؤمنين من ذريته، وقد قامت الأدلة القاطعة على أن من لم يكونوا ظالمين قد يرفعهم الله تعالى إلى مقام النبوة، كما رفع إليه إسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ومحمداً ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وقد يبقى في منزلة دونها؛ ككثير من الصالحين الذي طهرهم الله تعالى من الظلم، ولم يدعوا النبوة في حال، فقول داعية القاديانية: «فهل يظن المشايخ أن ذرية إبراهيم كلها صارت ظالمة... إلخ» ضرب في غير مفصل، ورمي الكلام في غير مرمى؛ فإن المشايخ يقولون: إن الآية واردة للدلالة على أن النبوة تجعل في غير الظالمين، ويقولون مع هذا: الله أعلم أين يجعلها؟ ومتى يجعلها؟ وليس في الآية دليل على بقاء النبوة في سائر العصور، حتى في العصر الذي يستغنى فيه عن النبوة والرسالة بالكتاب الذي أودع الله تعالى فيه جلائل الهداية ودقائقها، وتكفل بحفظه وحمايته من أن يدخله تحريف، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام: ٣٨].

وقال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر: ٩].

ومن نفى عن أمة النبوة لعدم حاجتها إليها، ولقيام الأدلة على انقطاعها، لم يلزمه الحكم عليها بأنها كلها صارت ظالمة، ومن ألزمه هذا الحكم، فقد خرج عن أدب البحث، ومشى في غير طريق.

وأورد داعية القاديانية في الاستدلال على بقاء النبوة قوله تعالى:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[الفاتحة: ٦ ـ ٧].

فقال: «هذا الدعاء يبشرنا بأن الله يجعل المؤمنين في مقام الذين أنعم عليهم سابقاً، ويعطيهم كل نعمة أعطاها للأولين، ويتمها عليها، والنعمة نعمتان: دينية ونهايتها النبوة، ودنيوية ونهايتها الحكومة والسلطة».

غاب هذا الداعية عن الصواب، وانطلق يتحدث في غير علم، ومن ذا الذين يعرف شيئاً من العربية الصحيحة أو المعتلة، ويقرأ قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، ويفهم منها أن المناجي لله بهذه السورة يطلب أن يكون هو أو غيره من المؤمنين في مقام النبوة، والآية لا تدل على أكثر من أن المؤمن يدعو الله تعالى في جملة المؤمنين بأن يهديه طريق من أنعم عليهم. ومن استقام على واجبات الدين وسننه جهد استطاعته، فقد اهتدى طريق المنعم عليهم، ولا يلزم من اهتدائه لطريق المنعم عليهم من النبيين أن يرزق ما رزقوه من نعمة النبوة التي لا ينالها الناس بكثرة أعمالهم الصالحة؛ إذ النبوة مقام يختص به الله من يشاء من عباده.

وما قاله هذا الداعية في هذه الآية أصله لكبيرهم الذي علمهم اللعب واللغو في تفسير القرآن الحكيم؛ إذ قال في خطبته الإلهامية: «وأنا المنعم عليه الذي أشير إليه في الفاتحة عند ظهور الحزبين المذكورين»؛ يعني: المغضوب عليهم، والضالين، وقال: «إن سورة الفاتحة لتؤذن إيذاناً بأن بعض الأفراد من هذه الأمة سيظهرون بمظهر الأنبياء من كل الوجوه».

ومن نكد الدنيا أن نشتغل بحكاية أمثال هذا اللغو، وننفق وقتاً في التنبيه على أنه هذيان في هذيان.

وأورد داعية القاديانية في الاستدلال على بقاء النبوة قوله تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فقال: «وهذه الآية تصرح جلياً أن الأمة المحمدية تنال هذه الدرجات الأربع».

والصواب في فهم الآية أن قوله تعالى:

﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾.

هو بيان لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، والأصل في كلمة «مع»: المصاحبة، والمصاحبة لا تستلزم المساواة في الرتبة، بل يكفي فيها الاشتراك في دار النعيم، مع تمكن كل واحد من رؤية الآخر، وملاقاته متى شاء.

فالآية وردت لبيان ما يجازى به المطيع لله ورسوله، وهو مرافقة الأنبياء ومن ذكر بعدهم، وتأويلها على معنى: أن من المطيعين أنبياء، ومنهم صديقين، ومنهم شـهداء، تأويل للآية على معنى لا يتقبله إلا نفوس تلوثت باعتقاد أن غلام أحمد وأذنابه أنبياء صادقون.

وأما ما ذكره الداعية من أن قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بيان لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، فحمل للآيـة على وجه تتجافى عنه قوانين البلاغة، ويكسبها تعقيداً يتبرأ منه كلام الفصحاء، قبل أن يتبرأ منه كلام خالق الفصحاء. فعد هذا الوجه في أخطاء قائله أولى من حشره في شبه هي أوهى من نسج العنكبوت.

*** دعوى غلام أحمد أنه أفضل من عيسى ـ عليه السلام ـ:**

نقلنا في مقالنا السابق شواهد على غرور غلام أحمد، واستحواذ الشيطان

عليه، حتى ادعى أنه خير من عيسى ـ عليه السلام ـ، فرد داعيتهم على هذا باعتراف أن غلام أحمد يفضل نفسه على عيسى ـ عليه السلام ـ، وذهب إلى أن هذا التفضيل صحيح، بزعم أن غلام أحمد مسيح الأمة الإسلامية، فيكون أفضل من مسيح الأمة الإسرائيلية. ولم يستطيعوا إنكار هذه الضلالة؛ لأن غلام أحمد قالها في مواضع من مؤلفاته بعبارات صريحة، ففي مقال له نشر في كتاب «تعاليم المسيح المنتظر» ما يأتي: «كما أن مؤسس الشريعة الإسلامية أعظم من مؤسس الشريعة الموسوية، كذلك مسيح السلالة الإسلامية أعظم من مسيح السلالة الموسوية».

فالقاديانيون يعتقدون أن غلام أحمد أفضل من عيسى ـ عليه السلام ـ، أفلا يكفي هذا شاهداً على أن النحلة القاديانية شعبة من الشعب التي انسلخت من الإسلام، والإسلام بريء منها؟! وكيف يكون غلام أحمد الذي قامت البراهين على كذبه وسوء طويته، أفضل من عيسى بن مريم الذي وصفه الله تعالى في كتابه العزيز بالنبوة والرسالة، وأيده بالآيات البينات، فما قاله غلام أحمد في الاستدلال على أفضليته، إلحاد وهذيان، فإن دعواه أنه مسيح السلالة الإسلامية باطلة على البداهة، وكل ما يبنى عليها ضلال في ضلال.

*** تكفير غلام أحمد لمن عصمهم الله من اتباعه:**

ذكرنا في مقالنا السابق: أن غلام أحمد يعد المسلمين الذين ينبذون دعوته كفاراً، ويمثلهم باليهود، فأراد الداعية القادياني أن يرد علينا في هذا الموضع، وأورد حديث: «ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل»، وحديث: «إن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة،

وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة»، ثم قال: (وأحمد المسيح الموعود لم يجعل مسلماً كافراً، ولم يمثل مؤمناً باليهود، بل بيّن حقيقة قرآنية، ونبأً نبوياً).

ثم قال: «وإننا نسأل المشايخ: هل كان قول أحمد في غير محله، وهل كان مجيئه في غير حاجة».

ونحن لم ننازع في أن من المنتمين إلى الإسلام طوائف زائغة عن السبيل، حتى نحتاج إلى أن نذكر بهذه الأحاديث، والذي نعده في ضلالات غلام أحمد: أنه يسمي المسلمين الذين لا يقبلون دعوته كفاراً، وينهى عن مصاهرتهم، والصلاة خلفهم. ومن شواهد تكفيره لمن حفظهم الله تعالى من فتنته: قوله في كتاب «حقيقة الوحي»: «الكفر على قسمين: **أحدهما**: أن يجحد الرجل عن الإسلام، أو نبوة محمد ﷺ. **والثاني**: أن يجحد المسيح الموعود (يعني: نفسه)، ويكذبه مع سطوع الحجج على صدقه، وإن أمعنت النظر، وجدت كلا القسمين واحداً».

ومن تمويه داعيتهم قوله: «إن أحمد المسيح الموعود لم يجعل مسلماً كافراً. . . إلخ»؛ فإن المسلم والمؤمن عند القاديانية من صدق بأن غلام أحمد نبي، وغيره في مذهبهم ليس بمسلم ولا مؤمن، فإذا وصف من لم يقبلوا دعوته بالكفر أو باليهودية، لم يجعل مسلماً كافراً في نظرهم أو يهودياً.

أما قوله: «وإننا نسأل المشايخ: هل كان قول أحمد. . . إلخ»، فجوابه: أن غلام أحمد يقول غير الحق، وما كانت دعوته إلا فتنة وتفريقاً بين المسلمين، وصداً عن طرق الفلاح ومراقي العزة، ولم يجئ على يديه ما فيه خير الدين،

بل وضع نحلة ملفقة من آراء باطلة، وأقوال لاغية، ثم أضاف إليها شيئاً من مبادئ الإسلام، وسمّاها في الظاهر باسم الإسلام مكراً وتغريراً.

*** تزوير داعية القاديانية:**

نقل هذه الداعية عبارات لبعض العلماء في صورة الاستدلال بها على أن في أهل العلم من يذهب إلى بقاء باب النبوة مفتوحاً، ولسنا في حاجة إلى إطالة الكلام بذكر تلك العبارات، وبيان ما فيها من جهالة أو تحريف، ونقول ـ والأدلة تناصرنا ـ: إن كل عبارة تصرح بصحة بعث نبي بعد الرسول غير عيسى ـ عليه السلام ـ فهي كفر صراح. ونسوق إليك مثلاً من تزوير هذا الداعية فيما يعزوه إلى أولئك العلماء:

نقل الداعية عبارة للشيخ عبد القادر الكردستاني يوهم بها أن الشيخ يجوز أن يجيء نبي بعد رسول الله ﷺ غير مشرع، فقال: يقول الشيخ عبد القادر الكردستاني ما نصه: «إن معنى كونه خاتم النبيين هو أنه لا يبعث بعده نبي مشرع».

أورد القادياني هذه العبارة مقطوعة عن سابقها ولا حقها؛ ليخدع بها قراء ورقاته. والحقيقة أن عبارة الشيخ عبد القادر وردت في تعليقه على كتاب «التهذيب وشرحه»، وأصل ما في «التهذيب والشرح»: «وأنه لا يبعث نبي بعده، ولكن رسول الله، وخاتم النبيين، وإذا ثبت أنه خاتم الأنبياء ثبت أنه لا تنسخ شريعته». وكتب الشيخ عبد القادر معلقاً على ذلك ما نصه: قوله: «وأنه لا يبعث نبي بعده» إشارة إلى دفع ما يقال: إن عيسى حي بعد نبينا ﷺ حيث رفع إلى السماء، وينزل إلى الدنيا، فلا يكون ﷺ خاتماً، وحاصل الدفع: أن معنى كونه خاتم النبيين: هو أنه لا يبعث بعده نبي آخر

بشـريعة أخرى، فإن عيسى ـ عليه السـلام ـ إنما ينزل على شـريعة نبينا، ولا يسعه إلا اتباعه».

هذه عبارة الشيخ الكردستاني، وهي ـ كما رأيتها ـ خاصة بالحديث عن عيسى ـ عليه السلام ـ، ولم يقلها ليدل على أن باب النبوة بعد النبي ﷺ لا يزال مفتوحاً، وهذه العبارة تشبه عبارة النيسابوري إذ قال عند قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[الأحزاب: ٤٠]: ومجيء عيسى ـ عليه السلام ـ في آخر الزمان لا ينافي ذلك؛ لأنه ممن نبئ قبله، وهو يجيء على شريعة نبينا ﷺ مصلياً إلى قبلته، وكأنه بعض أمته. وهذا مثل ينبئك أن داعية القاديانية ينسب إلى علماء الإسلام ما لم يخطر لهم على بال.

*** اقتراح غلام أحمد على علماء الهند أن يتركوه عشر سنين:**

ذكرنا في المقال السابق: أن غلام أحمد اقترح على علماء الإسلام بالهند أن يتركوه عشر سـنين لا يعارضونه، ولا يفندون آراءه، وقال لهـم: إن كنت كاذباً، فسـيظهر كذبي، وإن كنت صـادقاً، نجوتم من العقوبة التي ينزلها الله على من يناوئني، وقلنا: إن العلماء لم يكونوا من الغباوة بحيث تروج عليهم هذه المكيدة، بل لم يكونوا من الجهل بواجبات الدين على حد أن يقبلوا هذا الاقتراح، ويطلقوا لغلام أحمد الشكيمة غير مبالين بما يفسده من عقائد وأخلاق وآداب، ولم يخجل داعية القاديانية أن يتعرض في مقاله لهذا الاقتراح، وتبلغ به قلة الخجل أن يعد مثل هذا في طرق الدعوة الصحيحة، ويقيسه بحكمة القرآن الحكيم في قوله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟

﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ٦٤].

والفرق بين الآية الكريمة، واقتراح غلام أحمد، كالفرق بين البياض الناصع، والسواد الحالك، وداعية القاديانية إما أنه لم يفهم معنى الآية، وإما أنه يتخيل أن قراء مقاله قد وضعوا عقولهم بين أصابعه يعبث بها كيف يشاء.

وهل من المعقول أن يكون مثل غلام أحمد في اقتراحه السخيف مثل رسول الله ﷺ إذ أمره الله تعالى بأن يدعو أهل الكتاب إلى إخلاص العبادة لله تعالى، وعدم اتخاذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإذا لم يقبلوا هذه الدعوة، اعتز هو وأصحابه بإسلامهم، وأعرض عن أولئك الجاهلين؟!.

وإذا قص القرآن الكريم أن بعض المدافعين عن رسول عزم بعض قومه على قتله، قال لهم في دفاعه عنه:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾[غافر: ٢٨].

فإن ذلك الرجل إنما قال هذه الكلمة في حق داع إلى الله بحق، قد قامت البينات على صدقه، ولم يكن بيد القوم دليل أو أمارة على كذبه البتة، وليس هذا حال غلام أحمد مع علماء الإسلام، فإن دعاوي غلام أحمد مناقضة لأصول الإسلام، فكذبه مقطوع به، فإذا قال لأهل العلم: دعوني، ولا تتعرضوا لدعاياتي مقدار عشر سنين، فإنما يقول لهم: دعوني أبدل دينكم الحنيف، وأهدم شريعتكم الغراء، وأقيم العقبات في سبيل عزتكم، وكونوا على هذا البلاء صابرين، ولهذه المهانة محتملين، وبعقوبة الله غير مبالين.

ولا عجب لمن لم يذق للغيرة على الحق طعماً أن يعرض ذلك الاقتراح على من علمهم القرآن العزيز أدب النصح لله ولرسوله وللمؤمنين.

*** ادعاء غلام أحمد للنبوة:**

بعث إلينا معتمد القاديانية في بلد «نكس» بلاهور كتاباً ينكر فيه أن غلام أحمد قد ادعى النبوة، ويعد فرقة قاديان التي من زعمائها داعية فلسطين فئة ضالة، ومما قاله في الكتاب: «حينما بحثتم عن عقائد فئة قاديان الغالية الضالة عن جادة الحق والصواب، بنيتم بحثكم على عبارات هذه الفرقة الغالية دون عبارات كتب حضرة المجدد وتصريحاته، وجعلتم عقائد هذه الفئة مرايا عقائد حضرة المجدد افتراء عليه». ثم قال: «فعليك أن تأتي بكلمة من كتبه دالة على أن حضرة المجدد ادعى النبوة، ولن تستطيع أبداً».

ونحن نوافقه على أن فرقة قاديان فرقة ضالة، بل هي خارجة في ضلالها عن دائرة الإسلام، ونقول له: إن حضرة مجددكم قد فضل نفسه على عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ، وهل يصح لمجدد أن يفضل نفسه على رسول عظيم قبل أن يزعم أنه قد أوتي النبوة والرسالة؟! وإذا كان غلام أحمد لا يدعي النبوة والرسالة، فما معنى الآيات التي يتبجح بها، ويزعم أن الله أيده بها، والمجدد والمصلح غير النبي إنما يرجع إلى كتاب الله، وسنّة رسول الله، أو إلى الأصول النظرية المعقولة، فيستمد منها الأدلة على ما يقرره ويدعو إليه من عقائد أو أحكام أو آداب، وإذا لم يمكنه إقناع الناس من هذه الناحية، فعدّه مجدداً مصلحاً، جهالةٌ ليس وراءها جهالة.

أليس مجددكم هو الذي يقول: «بعث الله تعالى في هذه الأمة مسيحاً أفضل من المسيح الأول في جميع الكمالات، والذي نفسي بيده! لو كان

عيسى بن مريم في زمان أنا فيه، لما استطاع عملاً مما عملته، ولم يكد يظهر المعجزة التي ظهرت».

أو ليس مجددكم هو الذي يدعي أنه أوحي إليه قوله: «إنا أرسلنا أحمد إلى قومه، فأعرضوا عنه، وقالوا: كذاب أشر»؟!.

بل وجد في كلام غلام أحمد ما يدل على أنه يحدث نفسه بأنه رسول مشرع؛ فقد عد من أقسام الكفر: جحود المسيح الموعود (يعني: نفسه)، وتكذيبه فيما جاء به، وقال في حاشية على كتاب «ترياق القلوب»: «وليتنبه أن تكفير المنكرين من خواص الأنبياء الذين جاؤوا بشريعة جديدة، وأحكام ناسخة، وأما من سواهم من الملهمين والمحدثين، فلا يكفر أحد بجحوده». فإن كان غلام أحمد يكتب ما يكتب وهو عارف ما يكتب، قلنا: إن حكمه بتكفير من يكذب به، ثم قصره التكفير على من يكذّب الأنبياء الذين جاؤوا بشرائع جديدة، يفيدان أن غلام أحمد يدّعي أنه من الأنبياء الذين جاؤوا بشرائع جديدة.

فدعوا أيها اللاهوريون ذكر النبوة الظلية أو المجازية، وتعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: أن نثق بأن غلام أحمد قد ادعى النبوة والرسالة كذباً، وأميطوا ما يزعم غلام أحمد أنه أوحي إليه إماطة الأذى عن الطريق، وارجعوا إلى كتاب الله وسنّة رسول الله، ولا تجحدوا ما نطق به القرآن من معجزات رسل الله الأكرمين، واعترفوا بأن ما أولتموها به لا يحتمله اللفظ العربي، ولا يسمح به سياق الآيات، ولم يعرفه علماء الصحابة الذي تلقوا القرآن وبيانه من فم رسول الله ﷺ.

وأن فرقة القاديانية التي تصدق غلام أحمد في دعوى النبوة لتعدُّكم

فرقة خارجة عن نحلتهم، والأمة الإسلامية التي تؤمن بما نزل على محمد ﷺ، وما حدّث به محمد ﷺ، تعدّكم فرقة خارجة عن حدود دينهم، وليس تأويلكم للمعجزات المذكورة في القرآن إلا إنكاراً لوقوعها، وما تسميتكم لغلام أحمد بالمجدد المصلح إلا نصب أحبولة لاستدراج المستضعفين أو الغافلين إلى نحلة ملفّقة شوهاء.







نقض شُبه القاديانية[1]

كنا كتبنا في مجلة «نور الإسلام»[2] مقالاً نبهنا فيه المسلمين لنزعة غلام أحمد، ومزاعمه الباطلة، فكان له ـ بحمد الله تعالى ـ أثر عظيم في إيقاظ من كانوا في غفلة عن هذه النحلة، وما يثيره دعاتها في العالم الإسلامي من فتون وشرور، فتميز أولئك الدعاة غيظاً، وما كان من داعيتهم في فلسطين إلا أن كتب مقالاً يوهم فيه الطائفة الواقعة في حبالتهم أنه يرد على مقالنا. ووقع نظرنا على ذلك المقال المملوء بالتمويه والالتواء عن آداب المناظرة، فبدا لنا أن نعود للكتابة في تلك النحلة، فنزيد حالها إيضاحاً. وكتبنا في مجلة «نور الإسلام» مقالين آخرين نبهنا فيهما لبعض ما في مقال ذلك الداعية من مراوغة وانحراف عن السبل، وسقنا فيها بعض ما نطق به كبيرهم غلام أحمد من زور وهذيان، وحدث بعد هذا أن نشر ذلك الداعية في أوراق يصدرونها في شكل مجلة مقالاً حاول فيه الرد على مقالنا الثاني المنشور في مجلة «نور الإسلام». والواقع أنه لم يأت في مقاله هذا إلا بما يطعن في دعوتهم، ويزيد الناس خبرة بفساد مذهبهم، وقد كان في عرض بعض أقوال غلام أحمد وشيء من مسلكه الكفاية للدلالة على أنه يكيد للأمة

(١) مجلة «نور الإسلام» ـ الجزآن السابع والثامن من المجلد الرابع.

(٢) وهو المقال المنشور في هذا الكتاب.

الإسلامية، ويقول على الله غير الحق. ولا حاجة بنا في إبطال دعوة النبوة والرسالة إلى الخوض أن النبوة منقطعة أو باقية؛ فإن تلك الأقوال التي صدرت من غلام أحمد، تنادي بملء حروفها أن النبوة في ناحية اليمين، وهو في ناحية الشمال، ولكنا آثرنا النزول إلى نقض بعض مزاعمهم؛ حذراً من أن تجد أذهاناً غافلة فتعلق بها. وها نحن أولاء نعرض على حضرات القراء قطعاً من مقال داعية القاديانية؛ ليزدادوا علماً بحال تلك النحلة، ومبلغ دعاتها من لبس الحق بالباطل:

رأى غلام أحمد ومن اتبع خطواته أن قوله تعالى في وصف الرسول الأعظم ﷺ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَ﴾[الأحزاب: ٤٠] يسد الطريق على من يريد فتنة الناس بدعوى النبوة، فحاولوا تأويل الآية على معنى أنه أفضل النبيين، أو سيد النبيين، وابتغوا هذا التأويل؛ ليتهيأ لهم أن يقولوا على الله ما شاءت أهواؤهم، ويفسدوا على المسلمين أمر دينهم، فقلنا لهم: إن علماء التفسير قد اتفقوا على أن ﴿وَخَاتَمَ﴾ في الآية بمعنى: آخِر، وهو المعنى الذي يذكره علماء اللغة، ويسوقون من شواهده هذه الآية، ومن أراد صرف ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَ﴾ عن معنى: آخِر النبيين إلى معنى: أفضل النبيين، فعليه بإقامة شاهد، أو نقل كلمة عن بعض علماء اللغة يدل على أن وصف الرجل بكونه خاتماً لقوم، يقصد منه أنه أفضلهم، أو سيدهم، ولكن داعية القاديانية لم يستطع أن يقيم من كلام العرب أو علماء اللغة ولو شاهداً واحداً على أن مثل تركيب ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَ﴾ قد يستعمل بمعنى: أفضلهم، أو سيدهم.

يقول الداعية في مقاله الجديد: «وكنا سقنا شواهد واستعمالات العرب في كون لفظ الخاتم مضافاً، والقوم أولي المناصب مضافاً إليهم، وكون

استعمال هذا المركب الإضافي، في مقام المدح، ولا يتأتى المعنى في تلك الاستعمالات إلا أن الممدوح أفضل القوم وسيدهم».

والداعية لم يورد في مقاله السابق شيئاً من كلام العرب يشهد بأنه الخاتم إذا أضيف إلى القوم أولي المناصب كان بمعنى: أفضلهم، أو سيدهم، وإنما أورد عبارات لمن لا يحتج عالم في تفسير كتاب الله تعالى بكلامهم، ولا تتجاوز تلك العبارات وصف أحد الرجال بأنه خاتم العلماء، أو الأولياء، أو الشعراء، ما هي إلا أقوال صدرت من بعض رجال القرون المتأخرة، أو القريبة منها، وإنما يحتج في تفسير القرآن الكريم بكلام العربي الصميم.

وهل رأيتم مجادلاً أسخف قولاً ممن يحتج في بيان معنى آية من كتاب الله تعالى بما كتبته المطبعة الأزهرية على أول الصحيفة الأولى من كتاب «الإتقان»؛ أعني قوله: «الجزء الأول من كتاب الإتقان في علوم القرآن لخاتمة المحققين».

ثم إن أمثال هذه العبارات من نحو خاتم المحققين، أو خاتم الأئمة، أو خاتم المجتهدين، قد ينساق إليها قائلها من شدة إكباره لمقام الممدوح، لحد أن يظن بلوغه مرتبة يبعد أن ينالها أحد من بعده، كما قالوا:

هيهات أن يأتي الزمان بمثله ... إن الزمان بمثله لبخيل

وكما قالوا:

حلف الزمان ليأتين بمثله ... حنثت يمينك يا زمان فكفِّرِ

وكما قال السيوطي في تقي الدين الحراني: «آخر المجتهدين».

وفسر الداعية في مقاله الأول الخاتم بمعنى: الزينة، ولم يجد شاهداً على هذا من كلام العرب، أو أقوال اللغويين، أو المفسرين، فتعلق بكلمة

للشيخ محمد طريح النجفي (أحد علماء الشيعة) اقتطعها اقتطاعاً، فقال: يقول صاحب «مجمع البحرين» ما نصه: «ومحمد خاتم النبيين يجوز فيه فتح التاء وكسرها، فالفتح بمعنى: الزينة، مأخوذ من الخاتم الذي هو زينه للابسه».

والواقع أن الشيخ النجفي قد صرح بأن النبي ﷺ آخر النبيين، فقد قال قبل تلك الكلمة التي اقتطعها الداعية: «قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠]؛ أي: آخرهم، ليس بعده نبي». ثم قال: «ومحمد خاتم النبيين يجوز فيه فتح التاء وكسرها، فالفتح بمعنى: الزينة، مأخوذ من الخاتم الذي هو زينة للابسه، وبالكسر اسم فاعل بمعنى: آخر».

ولما كان صاحب «مجمع البحرين» يعتقد أن محمداً ﷺ آخر الأنبياء ليس بعده نبي، فقصارى أمره أن يكون أخطأ في تأويل ﴿وَخَاتَمَ﴾ على قراءة الفتح بمعنى: الزينة؛ فإنه مخالف لأقوال من هم أدرى منه بتفسير كتاب الله تعالى، وبوجوه استعمال الألفاظ العربية حقيقة أو مجازاً.

وها نحن أولاء نسوق إليكم طائفة من أقوال علماء اللغة والمشاهدة بأن الخاتم ـ بفتح التاء أو كسرها ـ بمعنى: الآخِر، قال صاحب «اللسان»: «وخاتَمهم، وخاتِمهم: آخِرهم، ومحمد ﷺ خاتم النبيين». وقال ابن سيده في كتاب «المحكم»: «وختام القوم، وخاتَمهم، وخاتِمهم: آخرهم»، وقال: «وفي التنزيل: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠]؛ أي: آخرهم». وقال الأزهري في كتاب «التهذيب»: «وخاتم كل شيء: آخره، وقوله تعالى: ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ معناه: آخر النبيين». ولم يذكر أحد من هؤلاء الأئمة أو غيرهم كصاحب «الصحاح»، وصاحب «المصباح»، وصاحب

«القاموس»، وصاحب «أساس البلاغة» أن الخاتم يكون بمعنى: الزينة.

ولعل الداعية يعلم أن القرآن الكريم إنما يستشهد في تفسيره بكلام العرب، ويتيقن أن استشهاده بالعبارات التي ينقلها عن بعض الكتاب أو أصحاب المطابع، لا يتقبله أهل العلم، ولكنه يسوقها استهواء لقوم يجهلون آداب البحث، ولا يفرقون بين ما يصح أن يستشهد به في تفسير كتاب الله تعالى، وما لا يصح الاستشهاد به.

وخلاصة البحث: أن علماء اللغة يقولون: الخاتم بمعنى: الآخر، والمفسرون يقولون: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠]؛ أي: آخرهم، وداعية القاديانية يزعم أن ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بمعنى: زينتهم، أو سيدهم، أو أفضلهم. وانتظرنا منه أن يأتي بشاهد على هذا من كلام العرب، أو من كتب اللغة، أو من أقوال أئمة التفسير، فلم يفعل، وذهب يعارض أئمة اللغة والتفسير، بلغو من القول، كأنه لا يشعر أن القرآن الكريم قول فصل، وما هو بالهزل.

يفكر داعية القاديانية أن النبي ﷺ خاتم النبيين، ويذهب إلى أن ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ في الآية يستعمل بمعنى: أفضل النبيين، أو زينتهم، وأورد في الاستدلال على أن لفظ خاتم يستعمل بمعنى: أفضل، أو زينة حديثاً هو: أن النبي ﷺ قال للعباس ﵁: «أنت خاتم المهاجرين في الهجرة، وأنا خاتم النبيين في النبوة».

وهذا الاستدلال مدفوع بأن الذي ورد في كتاب «أسد الغابة»: أن العباس استأذن النبي ﷺ في الهجرة، فقال له: «يا عم! أقم مكانك الذي أنت به، فإن الله تعالى يختم بك الهجرة كما ختم بي النبوة». وقرأنا في كتاب «الإصابة»: أن العباس «هاجر قبل الفتح بقليل»، وقرأنا في غزوة الفتح من

«سيرة ابن هشام»: أن العباس ﷺ لقي رسول الله ﷺ ببعض الطريق، لقيه بالجحفة مهاجراً بعيالـه، وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سـقايته، ورسول الله ﷺ عنه راض.

فصاحب كتاب «الإصابة» يقول عن العباس ﷺ: إنه هاجر قبل الفتح بقليل، وابن هشـام يقول: لقي رسـول الله ﷺ بالجحفة مهاجـراً بعياله. فمتى ثبـت حديث: «أنت خاتم المهاجريـن»، صح أن يكون العباس خاتـم المهاجريـن بمعنى: آخرهم؛ أي: آخر المهاجريـن من مكة إلى المدينـة؛ لقوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح». وداعية القاديانية لم يأت بشاهد على أن بعض المسلمين قد هاجر بعد العباس حتى يمتنع أن يكون خاتم المهاجرين بمعنى: آخرهم.

وأورد داعية القاديانية على تفسير خاتم بأفضل أو زينة حديثاً عزاه إلى «كتاب الصافي» الذي هو تفسير لأحد علماء الشيعة، وهو «أنا خاتم النبيين، وأنت يا علي خاتم الأولياء»، ولكن صاحب «كتاب الصافي» لم يروه بسند، ولم يسنده إلى كتاب، حتى نبحث في سنده، وتتبين حقيقته، بل قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠]: آخرهم الذي ختمهم، أو ختموا به ـ على اختلاف القراءتين ـ، وعن النبي ﷺ قال: «أنا خاتم النبيين، وعلي خاتم الأولياء».

فصاحب «كتاب الصافي» معترف بأن النبي ﷺ آخر النبيين، ولا يتم الاستشهاد بقوله: «خاتم الأولياء» إلا أن يذكر سند الحديث، ويكون رجاله ممن يوثق بهم في الرواية، أو يسنده إلى كتاب من الكتب المعروفة بالتحري في رواية الحديث. ومن الأحاديث الموافقة لهذا الحديث في المعنى، وقد

حكم عليها الحفاظ بالوضع: حديث: «كما أني خاتم النبيين، كذلك علي وذريته يختمون الأوصياء إلى يوم الدين»[1]. وقال ابن الجوزي: ولفظ: «خاتم الأولياء» باطل لا أصل له، وخاتم الأولياء في الحقيقة: آخر مؤمن بقي من الناس، وليس هو أحسن الأولياء، ولا أفضلهم، بل خيرهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما[2].

سقنا أحاديث صحيحة كثيرة في معنى انقطاع النبوة بعد بعثة النبي ﷺ، فذهب ذلك الداعية يحرفها عن مواضعها، ويقول فيها قول من لا يقدر الحديث النبوي قدره، ولا يبالي أن يخرج بالكلام العربي عن وجوه دلالته، وقد أريناكم فيما سلف نموذجاً من تأويلهم الباطل لبعض تلك الأحاديث، واليوم نسوق إلى حضراتكم مثالاً تشهدون فيه كيف يعتسفون في غير طريق، ويحاولون إرضاء شهواتهم، ولو بأقبح التأويل:

أوردنا ـ في جملة ما أوردنا من الأحاديث ـ ما جاء في «سنن الترمذي»، من أن النبي ﷺ قال: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي، ولا نبي»، فشق ذلك على الناس، فقال: «ولكن المبشرات»، قالوا: يا رسول الله! وما المبشرات؟ قال: «رؤيا المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة».

وهذا الحديث صريح في انقطاع النبوة بعد البعثة المحمدية، ولكن الداعية القادياني حاول صرف هذا النص عن معناه، وذهب في تأويله، والخروج على حجته مذهب التعنت، حتى زعم أنه معارض لبعض آيات القرآن الكريم،

---

(١) انظر: «اللآلئ المصنوعة».

(٢) «تذكرة الموضوعات».

فقال: «إن القرآن المجيد يقرر نزول الملائكة على المؤمنين، وتبشيرهم إياهم بنصرتهم في الدنيا والآخرة، وذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: ٣٠].

ويقول في مقام آخر: إن الملائكة وجبريل أيضاً تنزل كل ليلة قدر:

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[القدر: ٣ ـ ٤].

وكلام الملائكة مع البشر وحي في اصطلاح القرآن المجيد:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[الشورى: ٥١].

فإذا ثبت وجود الوحي من حيث القرآن المجيد، فلا بد من تأويل في معنى الحديث».

وليس في هاتين الآيتين ما يعارض الحديث، أما الآية الأولى، فتفسيرها عند بعض السلف على أن تنزل الملائكة، وقولهم للذين استقاموا: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ يكون عند الموت، وهذا ما يقوله مجاهد، والسدي، ومنهم من يقول: إن الآية إخبار عما يكون عند البعث، وهو قول مقاتل، ومنهم من يقول: إنها إخبار عما يكون عند الموت، وفي القبر، وهذا قول زيد بن أسلم.

وذهب آخرون في تفسيرها إلى أن الملائكة تمد صدور المؤمنين بما يشرحها، ويدفع عنها الخوف، على طريقة الإلهام، كما أن الشياطين تغوي الكافرين بتزيين القبائح، وتوسوس لهم بما يثير في قلوبهم الخوف

والحزن، قال تعالى:

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[النمل: ٢٤].

وقال تعالى:

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[البقرة: ٢٦٨].

وقال تعالى:

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾[الأنعام: ١٢١].

فليس بين حديث الترمذي وآية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[فصلت: ٣٠].

تعارض أو ما يشبه التعارض، إلا في نفوس باضت فيها الأهواء وفرّخت، ولم يكن للحكمة ولا للموعظة الحسنة عليها من سلطان.

ولو صح هذا الذي يقوله داعية القاديانية في تفسير الآية، لوجب أن يكون كل مؤمن مستقيمٍ نبياً يوحى إليه، ولا أقوى إيماناً من الخلفاء الراشدين، ولا أقوم منهم سيرة، وما ادَّعى أحد منهم أنه نبي أو رسول. أو أنه تأتيه الملائكة بالوحي، وما كان أحد من المسلمين يصفهم بالنبوة أو الرسالة، أفيزعم داعية القاديانية أنهم لم يقولوا: ربنا الله، ولم يستقيموا؟! أو أنهم لم يبلغوا في الاستقامة مبلغ غلام أحمد الذي أوغل في الضلالة، وأثار فتنة صادفت في بعض الناس غفلة أو جهالة، فكانوا لنارها حطباً!.

وأما آية:

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[القدر: ٤].

فليس فيها ما يدل على أن الملائكة يخاطبون المؤمنين على طريق الوحي الذي هو من خصائص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ. وأئمة التفسير من السلف

والخلف يقطعون بكذب دعوى النبوة بعد البعثة المحمدية، ولا يجدون في هذه الآية ما يعارض الأحاديث الواردة في انقطاع النبوة.

ومن الوجوه التي تساعدها البلاغة، وتطابق بها الآية سائر النصوص: أن يكون تنزل الملائكة من أجل الأمور التي عهد إليهم بتدبيرها ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾[النازعات: ٥]، فإن حمل الأمر في الآية على معنى الحكم الشرعي، كانت إخباراً عن تنزلهم ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن الحكيم. والتعبير بالمضارع لاستحضار ذلك التنزل بصورته البديعة، وهو من أحسن الطرق المعهودة في البيان.

وزعم الداعية القادياني أن حديث الترمذي: «إن النبوة والرسالة قد انقطعت» يعارض الحديث الذي يقول: إن المسيح الموعود «يوحى إليه: أن حَوِّزْ عبادي إلى الطور؛ فإني قد أنزلت عباداً لي لا يَدانِ لأحد بقتالهم».

وردت أحاديث صحيحة في نزول المسيح ـ عليه السلام ـ، ولم يجد أهل العلم بينها وبين الأحاديث الصريحة في انقطاع النبوة معارضة، والراسخون في فهم الأحاديث النبوية، العارفون بوجوه استعمال الألفاظ العربية في حدود وضعها، وعرف البلغاء من الناطقين بها يقولون: إن الأحاديث الواردة في انقطاع النبوة تنفي وقوع نبوة بعد البعثة المحمدية، ولا تتناول عيسى ـ عليه السلام ـ؛ لأن النبوة ثابتة له من قبل. ومن هؤلاء من يحمل الأحاديث على امتناع بعثة نبي بعد البعثة المحمدية على وجه عام، ويستثنى من هذا العموم عيسى ـ عليه السلام ـ؛ للأحاديث الواردة في نزوله آخر الزمان. ومن حمل النصوص الواردة في انقطاع النبوة على نفي النبوة التشريعية؛ كالملاّ علي قاري، لا يقصد فتح باب النبوة غير التشريعية بإطلاق، حتى توضع دعوى

غلام أحمد النبوة موضع النظر، واحتمال أن تكون صحيحة، وإنما يقصد لوجه في تفسير الآية أو الحديث يتفق به مع الأحاديث الواردة في نزول عيسى ـ عليه السلام ـ.

فعلماء الإسلام ـ على اختلافهم في تفسير الآية والأحاديث ـ يتفقون على أن لا نبي ولا رسول بعد محمد ﷺ، إلا ما ورد من نزول عيسى ـ عليه السلام ـ.

وقد يأتي داعية القاديانية إلى عبارات بعض من ذهبوا في تفسير الآية أو الأحاديث إلى معنى نفي النبوة التشريعية ابتغاء الجمع بينها وبين الأحاديث الأخرى، ويأخذ منها ما يقولونه من أن الآية أو الحديث في نفي النبوة التشريعية، ويدع بقية كلامهم الصريح في أنهم ارتكبوا هذا التأويل لقصد خاص: هو أن لا تكون آية: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠]، وما يوافقها من الأحاديث نافية بمقتضى عمومها مجيء عيسى ـ عليه السلام ـ، وقد نبهنا في مقال سابق على هذا النوع من التزوير في كلام نقله عن الشيخ عبد القادر الكردستاني.

وإليك مثالاً آخر من هذا القبيل: قال الداعية: يقول المحقق الملّا علي قاري: «فلا يناقض قوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ إذ المعنى: لا يأتي نبي ينسخ ملته، ولم يكن من أمته».

والواقع أن الملا علي قاري أورد حديث: «لو عاش إبراهيم، لكان نبياً»، وحديث: «لو كان بعدي نبي، لكان عمر بن الخطاب»[١]. ثم قال:

(١) رواه أحمد، والحاكم.

لو عاش إبراهيم، وصار نبياً، وكذا لو صار عمر بن الخطاب ﷺ نبياً، لكان من أتباعه ـ عليه السلام ـ؛ كعيسى، والخضر، وإلياس ـ عليهم السلام ـ، فلا يناقض قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَ﴾[الأحزاب: ٤٠]؛ إذ المعنى: أنه لا يأتي نبي بعده ينسخ ملته، ولم يكن من أمته.

فهذا التأويل، مع عدم الحاجة إليه في تحقيق معنى الآية، إنما ارتكبه الملا علي قاري ليدفع به ما يقال من أن حديث: «لو عاش إبراهيم» يقتضي أنه لو عاش، وصار نبياً، لزم أن لا يكون نبينا ـ عليه السلام ـ خاتم النبيين، ولا حاجة إلى هذا التأويل، فإن حديث عمر بن الخطاب حجة على انقطاع النبوة بعده ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وأما حديث: «لو عاش إبراهيم، لكان نبياً»، فقد أورده الداعية في شبهة، وقال: «فلو بقي إبراهيم عائشاً، ما كان ثمة مانع من صيرورته نبياً، لا آية: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَ﴾، ولا أي حديث».

وهذه الشبهة مدفوعة بأن هذا الحديث قد أنكر وروده طائفة من أهل الحديث، كما أنكره ابن عبد البر في كتاب «التمهيد»، وقال الإمام النووي في «تهذيبه»: «هذا الحديث باطل، وجسارة على الكلام بالمغيبات، ومجازفة وهجوم على عظيم». والأحاديث الموضوعة أو الضعيفة لا تقف في وجه الأدلة القطعية، ومن أراد أن يعقد بينها وبين القطعية وفاقاً، فليبق الأدلة القطعية بحالها، ويذهب في تأويل الضعيف أو الموضوع ـ على فرض ثبوته ـ ما شاء.





البابيَّة والبهائيَّة[1]

جاءنا من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي:

ما البهائية؟ وما اعتقاد مؤسسيها وأتباعهم؟ وهل يعتقدون في الحشر والجنة والنار؟ وهل يعتقد البهائيون بنبوة سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟ وإذا كانوا يعترفون بنبوة سيدنا محمد ﷺ، فكيف يعتقدون بنبي بعده، ودين غير دينه؟ وما الواجب عمله لإحباط مساعيهم حتى لا يقع أحد في شراكهم؟

بور سعيد . . .

الجواب:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

فقد احتوى هذا الخطاب مسائل متعددة، ونحن نورد كل سؤال، ونقفي على أثره بالجواب عنه مستندين فيما نكتب إلى مؤلفات[2]. للبهائيين أنفسهم، وكتبٍ[3]. ألفها بعض من اطلع على كتبهم المؤلفة باللغة الفارسية

---

(١) مجلة «نور الإسلام» ـ الجزء الخامس من المجلد الأول ـ القاهرة.

(٢) ككتاب «الدرر البهية»، وكتاب «عبد البهاء والعصر الجديد».

(٣) ككتاب «مفتاح باب الأبواب».

والعربية؛ بقصد بيان أمرهم نصيحة للإسلام والمسلمين.

س ـ ما البهائية؟

ج ـ البهائية: نسبة إلى بهاء الله: لقب به ميرزا حسين علي، وهو الزعيم الثاني للمذهب الذي تتولاه الطائفة المسماة بالبهائية. وتسمى هذه الطائفة: البابية نسبة إلى (الباب)، وهو لقب ميرزا علي محمد ذلك الذي ابتدع هذه النحلة. وإليك ملخص القول في نشأتها:

أصل نشأة هذه النحلة: أن ميرزا علي محمد الملقب بالباب نشأ في «شيراز» بجنوب إيران، وأخذ شيئاً من مبادئ العلوم، ثم اشتغل بالتجارة، ولما بلغ من العمر الخامسة والعشرين، ادعى أنه المهدي المنتظر، وكان إعلانه بهذه الدعوة سنة ١٢٦٠هـ، نعق بهذه الدعوة، فأخذها بالتسليم طائفة من الجاهلين. وأرسل بعض هؤلاء إلى نواح مختلفة من إيران للإعلام بظهوره، وبثّ شيء من مزاعمه، وتنبه العلماء لهذه الدعاية، فقاموا في وجهها، وعقد بعض الولاة بينهم وبين ميرزا علي هذا مجالس للمناظرة، فرأى بعضهم ما في أقواله من غواية وخروج عن الدين، فأفتى بكفره.

ورأى آخرون ما فيها من لغو وسخافة، فنسبه إلى الجنون واختلال الفكر.

واعتقل في «شيراز»، ثم بأصفهان، وساقته الحكومة الإيرانية في عهد الملك ناصر الدين شاه إلى «تبريز»، وثارت بين أشياعه وبين المسلمين فتن وحروب سفكت فيها الدماء، وكانت عاقبته أن أعدمته الحكومة في «تبريز» صلباً عام ١٢٦٥هـ.

وقعت بعد قتله فترة كانت أتباعه فيها على اختلاف في شأن من ينوب عنه، إلى أن دبروا اغتيال الملك ناصر الدين انتقاماً لزعيمهم، فهجم عليه

اثنان منهم، فخاب سعيهم، وأخذت الحكومة تتقصى أثر البابيين، وتسوق زعماءهم إلى مجلس التحقيق، وكان الميرزا حسين علي الذي لقبوه بعد بـ (بهاء الله) من شيعة الباب، ودعاة نحلته، فقبض عليه، وسجن بطهران بضعة أشهر، ثم أبعد إلى بغداد سنة ١٢٦٩هـ.

لما أدركت الحكومة الإيرانية خطر هذه الفئة وما يبيتونه من فتن؛ جعلت ترقبهم بحذر واحتراس، فالتحق طوائف منهم ببغداد، واجتمعوا حول ميرزا حسين الملقب ببهاء الله، ثم حدث بينهم وبين الشيعة ببغداد شقاق كاد يفضي إلى قتال، فقررت الحكومة العثمانية وقتئذ إبعاد البابيين من العراق، فنقلتهم إلى الآستانة، ونفتهم إلى «أدرنة».

قام المسمى (بهاء الله) لهذا العهد يدعو إلى نفسه، ويزعم أنه هو الموعود به الذي أخبر عنه الباب[1]، وقبل دعوته أكثر البابيين، وتسموا حينئذ بالبهائيين، وممن رفض دعوته أخوه ميرزا يحيى الملقب (صبح أزل).

ثم إن الحكومة العثمانية أمرت بإبعاد الفريقين من «أدرنة»، فنفت الميرزا يحيى وأتباعه[2] إلى «قبرص»، ونفت البهاء وأتباعه إلى «عكة» بفلسطين،

---

(١) يزعم البهائية أن الباب كان يشير إلى شخص يظهر بعده، وكانوا يعبرون عنه بلفظ: «من يظهره الله».

(٢) يسمى هؤلاء البابية: (الأزلية)؛ إذ يزعمون أن يحيى هذا هو مصداق ما أشار إليه الباب في كتاب «البيان» باسم: «من يظهره الله»، وهؤلاء يكفرون بالبهاء، ويتناولونه وأتباعه باللعن في السر والعلانية، وليحيي هذا كتاب أراد أن يحاكي به القرآن الكريم في ترتيب الآيات والسور، وحاول أن يحاذي به أسلوبه الحكيم، فافتضح أمره، وظهر سخفه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

وبقي البهاء بعكة إلى أن هلك عام ١٣٠٩هـ، فتولى رئاسة الطائفة ابنه عباس الذي لقبوه بـ (عبد البهاء)، فأخذ يدعو إلى هذا المذهب، ويتصرف فيه كما يشاء، ولم يرض عن صنيعه هذا أصحاب البهاء، فانشقوا عنه، والتفوا حول أخيه الميرزا علي، وألفوا كتباً بالفارسية والعربية، وطبعوها في الهند يطعنون بها في سيرة عباس، ويصفونه بالمروق من دين البهاء.

س ـ ما اعتقاد مؤسسيها وأتباعهم؟.

ج ـ ليست البهائية بالنحلة المحدثة التي لم يتقدم لها في النحل المارقة من الإسلام ما يشابهها، أو تتخذه أصلاً تبني عليه مزاعمها، وإنما هي وليدة من ولائد الباطنية، تغذت من ديانات وآراء فلسفية ونزعات سياسية، ثم اخترعت لنفسها صوراً من الباطل، وخرجت تزعم أنها وحي سماوي.

ولولا أن في الناس طوائف يتعلقون بذيل كل ناعق، لما وجدت داعياً ولا مجيباً لندائها، وها نحن أولاء نسوق إليك كلمة في مذهب الباطنية، ونحدثك عن البابية أو البهائية حتى تعلم أنها سلالة من ذلك المذهب الأثيم:

تقوم دعوة الباطنية على إبطال الشريعة الإسلامية، وأصل نشأة هذه الدعوة: «أن طائفة[1] من المجوس راموا عند شوكة الإسلام تأويل الشرائع على وجوه تعود إلى قواعد أسلافهم، وذلك أنهم اجتمعوا، فتذاكروا ما كان عليه أسلافهم من الملك، وقالوا: لا سبيل لنا إلى دفع المسلمين بالسيف؛ لغلبتهم، واستيلائهم على الممالك، لكنا نحتال بتأويل شرائعهم إلى ما يعود إلى قواعدنا، ونستدرج به الضعفاء منهم؛ فإن ذلك يوجب

(١) كتاب «المواقف وشرحه» للسيد الجرجاني.

اختلافهم، واضطراب كلمتهم».

وقد رسموا لهذا المذهب خطة دبروها بنوع من المكر، وهو أنهم جعلوا الدعوة مراتب:

١ - تفرس حال المدعو، أقابل للدعوة أم لا؟

٢ - استهواء كل أحد بما يميل إليه من زهد أو خلاعة.

٣ - التشكيك في أصول الدين.

٤ - أخذ الميثاق على الشخص بأن لا يفشي لهم سراً.

٥ - دعوى موافقة أكابر رجال الدين والدنيا لهم؛ ليزداد الإقبال على مذهبهم.

٦ - تمهيد مقدمات يراعون فيها حال المدعو لتقع لديه موقع القبول.

٧ - الطمأنينة إلى إسقاط الأعمال البدنية.

٨ - سلخ المدعو من العقائد الإسلامية، ثم يأخذون بعد هذا في تأويل الشريعة على ما تشاء أهواؤهم.

اتخذ هذه الخطة وسيلة إلى محاربة الدين الإسلامي طوائف كانوا يتظاهرون بأنهم من شيعة آل البيت، وهم لا يؤمنون بنبي من الأنبياء، ولا بشيء من الكتب المنزلة، ولا بيوم الجزاء، ولا أن للعالم خالقاً، وتراهم يستدلون بالقرآن والحديث، ولكن يحرفونهما عما أراد الله ورسوله منهما.

ومن الباطنية المتظاهرين بالتشيع لآل البيت من ادّعى النبوة لبعض آل البيت.

وكم أحدث هؤلاء الذين يدعون المهدية، أو النبوة، أو الإلهية من فتن! وكم جروا على العالم الإسلامي من بلاء! وكان أهل العلم يقاومون باطلهم،

ويهتكون أستارهم، وممن تصدى للرد عليهم: أبو حامد الغزالي، فألّف كتابه المسمى: «حجة الحق[1]»، وكتابه المسمى: «فضائح الباطنية[2]»، وذكر في مقدمة هذا الكتاب أنه طالع الكتب المصنفة فيهم، فوجدها مشحونة بفنين: فن في تواريخ أخبارهم وأحوالهم من بدء أمرهم إلى ظهور ضلالهم، وتسمية كل واحد من دعاتهم في كل قطر من الأقطار، وبيان وقائعهم فيما انقرض من الأعصار، وفن في إبطال تفاصيل مذاهبهم وعقائد تلقوها من الثنوية والفلاسفة، وحرفوها عن أوضاعها، وغيروا ألفاظها قصداً للتغطية والتلبيس، ثم بين أنه قصد في كتابه إلى الإعراب عن خصائص مذهبهم، والتنبيه على مدارج حيلهم، والكشف عن بطلان شبههم.

ولأبي بكر بن العربي مع بعض زعمائهم مناظرات ذكرها في كتاب «القواصم والعواصم»، وتناول الشيخ ابن تيمية مذهب الباطنية، وردّ على بعض فرقهم في بعض مؤلفاته.

عرفنا تاريخ الباطنية، وقرأنا بعض كتب البابية والبهائية، فوجدنا روح الباطنية حلت في جسم ميرزا علي، وميرزا حسين علي، فخرجت باسم البابية والبهائية.

الباطنية يستدلون بكلام النبوة، ويحرفون كلم القرآن والحديث عن مواضعه؛ كما فسروا حج البيت العتيق بزيارة شيوخهم، والبابية أو البهائية يستدلون بالقرآن والحديث، ويذهبون في تأويلهما إلى مثل هذا الهذيان نفسه، ولميرزا علي المسمى بـ (الباب) تفسير لسورة يوسف مشى فيه على

---

(١) ألفه باللسان الفارسي.

(٢) ألفه باللغة العربية وطبع في لندن.

هذا النمط، فقال في قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

«المراد من يوسف: حسين بن علي، والمراد بالشمس: فاطمة، وبالقمر: محمد، وبالنجوم: أئمة الحق، فهم الذين يبكون على يوسف سجّدا»!.

وهذا أحد دعاتهم المسمّى: أبا الفضل الجرفادقاني قد أورد في كتابه المسمّى: «الدرر البهية» قوله تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

وقوله تعالى:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وقال: «ليس المراد من تأويل آيات القرآن: معانيها الظاهرية، ومفاهيمها اللغوية، بل المراد: المعاني الخفية التي أطلق عليها الألفاظ على سبيل الاستعارة والتشبيه والكناية». ثم قال بعد هذا: «قرر الله تنزيل تلك الآيات على ألسنة الأنبياء، وبيان معانيها، وكشف الستر عن مقاصدها إلى روح الله حينما ينزل من السماء». وقال: «إنما بعثوا ـ عليهم السلام ـ لسوق الخلق إلى النقطة المقصودة، واكتفوا منهم بالإيمان الإجمالي حتى يبلغ الكتاب أجله، وينتهي سير الأفئدة إلى رتبة البلوغ، فيظهر روح الله الموعود، ويكشف لهم الحقائق المكنونة في اليوم المشهود»، وقال: «وفي نفس الكتب السماوية تصريحات بأن تأويل آياتها إلى معانيها الأصلية المقصودة لا تظهر إلا في اليوم الآخر؛ يعني: القيامة، ومجيء مظهر أمر الله، وإشراق آفاق الأرض ببهاء وجه الله».

ثم قال: «ولذلك جاءت تفاسير العلماء من لدن نزول التوراة إلى نزول البيان[1] تافهة باردة عقيمة جامدة، بل مضلة مبعدة محرفة مفسدة».

كنا نود أن نصرف القلم عن نقل مثل هذا السخف، ونصون صحف الكتاب عن أن تحمل لقرائه شيئاً من الزيغ والإلحاد في آيات الله، والاعتداء على علماء الإسلام الذين رفعوا منار الحق، وأذاقوا بحججهم أعداء الإنسانية عذاباً أليماً، ولكن دعاة هذا المذهب قد استهووا فريقاً من أبناء المسلمين، وأصبحوا يدعون إلى مذهبهم في النوادي، ويتحدثون عنه في الصحف، وألفوا كتباً تقع في أيدي بعض الشباب، فذلك ما اضطرنا إلى أن نبسط القول في بيان نحلتهم، وسرد أقوالهم؛ حتى يكون المسلمون على بينة من أمرهم.

لهج البابية البهائية مقتفين أثر إخوانهم الباطنية بهذا النوع من التأويل؛ ليدخلوا منه إلى العبث في تفسير القرآن والحديث، وصرفهما عما يراد بهما من حكمة وهداية.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

أنزل الله القرآن بلسان عربي مبين، ودلنا على أن الرسول الأعظم ﷺ يقوم ببيان ما خفي على الناس علمه، فقال تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وما زال السلف من الصحابة والراسخين في العلم من بعدهم، يفسرون القرآن بما يروونه عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبما يفهمونه منه

---

(١) هو الكتاب الذي وضعه ميرزا علي محمد الملقب بالباب.

على مقتضى استعمال لغتهم وأساليب بلاغتهم، فجاؤوا بعلم كثير، وأدب غزير، وتركوها حكماً رائعة، وشريعة سمحة باهرة، وقوانين اجتماع طاهرة، حتى قام جماعة من أوشـاب الناس يزعمون أن هذا القرآن الذي أنزله الله بلسان العرب لم يوكل بيانه إلى من كان يقرؤه على الناس بكرة وعشياً، ولم يفهم المراد منه أولئك الذين يتهجدون به في الأسحار سجداً لله وبكياً، وإنما وكل بيانه إلى أمثال ميرزا علي محمد، وميرزا حسين، وعباس، وأبي الفضل الجرفادقاني ليخوضوا فيه بلغو من القول، ويعثوا في تأويله مفسدين.

قال أبو بكر بن العربي في كتاب «القواصم والعواصم» يرد على إخوانهم الباطنية قولهم: إن خليفة الله هو الذي يبلغ عنه «الخليفة هو النبي الذي بين، ثم استأثر الله به، ولا معصوم بعده».

وفي كتاب «فضائح الباطنية» بسطة في رد ما يدعونه من ظهور الإمام المعصوم، وحصر مدارك الحق في أقواله، وقد عرفت أن الإمام المعصوم الذي يدعيه الباطنية هو ما يسميه البابية والبهائية بـ «من يظهره الله»، ويزعمون أنه هو الذي يعرف تأويل ما جاء به الرسل ـ عليهم السلام ـ، ويصرح هذا الإيراني في كتابه هذا بأن قصص القرآن غير واقعة، وقال: «لا يمكن للمؤرخ أن يستمد في معارفه التاريخية من آيات القرآن». وقال: «إن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ تساهلوا مع الأمم في معارفهم التاريخية، وأقاصيصهم القومية، ومبادئهم العلمية، فتكلموا بما عندهم، وستروا الحقائق تحت أستار الإشارات، وسدلوا عليها ستائر بليغ الاستعارات».

دعوى أن في القرآن قصصاً غير واقعة بزعم أنه رمز إلى معان خفية، ليس لها من داع سوى ما يضمره أصحابها من الكيد للقرآن الكريم، وإدخال

الريب في أنه تنزيل من لدن حكيم عليم.

لم يقم حتى الآن دليل تاريخي أو نظري يطعن في صحة قصة ساقها القرآن الحكيم، ونحن نستند في صحتها إلى الآيات الدالة على أن المبعوث به لا ينطق عن الهوى، فالمؤرخ المسلم، ومعلم التاريخ لأبناء المسلمين يستمد في معارفه التاريخية من آيات الذكر الحكيم، وهي عندنا أصدق قيلاً، وأقوى سنداً مما يقصه المؤرخ من حوادث تقع في عصره، أو قريب منه، وهذه الثقة بالطبيعة لا تحصل لمن ينكر أو يرتاب في أن القرآن حجة الله على العالمين، فلا تطالب المجوسي أو البهائي بأن يدخلوا في مؤلفاتهم التاريخية ما جاء في القرآن من أنباء الأولين، وهم لم يطمئنوا إلى أن محمداً ﷺ صادق أمين.

يزعم هذا الإيراني أن الرسول ينطق ببعض المبادئ العلمية مجاراة لقومه، وهي في الواقع غير صحيحة، وهذه جهالة غبي، وجراءة غوي، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإن لم يُبعث لتقرير المسائل العلمية التي تدركها عقول البشرية بسهولة، أو بعد جهد؛ كالطبيعيات والرياضيات لا يتحدث عن شيء منها حديث من يصدق بها إلا أن تكون صواباً، ودعوى أن لها رموزاً إنما اخترعها الإيراني وأمثاله ليستروا بها وجه جحودهم، والبرقع الشفاف لا يحجب ما وراءه.

ولم يكن تأويل البهائية وأسلافهم الباطنية لنصوص الشريعة على هذا الوجه الناقض لأصولها بشيء ابتدعوه من أنفسهم ابتداعاً، وإنما هو صنع عملوا فيه على شاكلة طائفة من فلاسفة اليهود من قبل؛ فأنا نقرأ في ترجمة «فيلون» الفيلسوف اليهودي المولود ما بين عشرين وثلاثين قبل ميلاد المسيح

أنه ألف كتاباً في تأويل التوراة ذاهباً إلى أن كثيراً مما فيها رموز إلى أشياء غير ظاهرة، ويقول الكاتبون في تاريخ الفلسفة: إن هذا التأويل الرمزي كان موجوداً معروفاً عند أدباء اليهود بالإسكندرية قبل زمان «فيلون»، ويذكرون أمثلة تأويلهم أنهم فسروا آدم بالعقل، والجنة برياسة النفس وإبراهيم بالفضيلة الناتجة من العلم، وإسحاق عندهم هو الفضيلة الغريزية، ويعقوب هو الفضيلة الحاصلة من التمرين، إلى أمثال هذا من التأويل الذي لا يحوم عليه إلا الجاحدون المراؤون، ولا يقبله منهم إلا قوم هم عن مواقع الحكمة ودلائل الحق غافلون.

وأبو الفضل هذا من أبعد دعاة البهائية في الهذيان شأواً، وأشدهم لعلماء الإسلام ضغينة، وإذا أخذ في شتمهم، لا يشفى غليله إلا أن يصب كل الجمل التي يعرفها في المعنى الذي أراد شتمهم به، انظروا إلى قوله في (صفحة ١٤٧) من ذلك الكتاب المسمى: بالدرر البهية: «فتمادوا في غيهم، وأصروا على باطلهم، وتاهوا في ضلالتهم، ومردوا في جهالاتهم، وعموا في سكرتهم، وانهمكوا في غوايتهم»، فالرجل حفظ جملاً التقطها من بعض الصحف السائرة، أو من الكتب الغابرة، وصار يلقيها فيما يكتب من غير وزن، حاسباً أن هذا الصنيع من تزويق القول ينقل الناس من الجد إلى الهزل، ومن الحق إلى الضلال!.

في الباطنية من يدعي أنه نبي، أو يعتقد في آخر أنه نبي يوحي إليه، وميرزا علي الملقب (بالباب) يدعي أنه رسول من الله؛ ووضع كتاباً ادعى أن ما فيه شريعة منزلة، وسماه: «البيان» وقال في رسالة بعث بها إلى الشيخ محمود الألوسي صاحب التفسير المشهور المسمى: «روح المعاني» يدعوه

فيها إلى مذهبه: «إنني أنا عبدالله قد بعثني الله بالهدى من عنده». وسمى في هذه الرسالة مذهبه: دين الله، فقال: «ومن لم يدخل في دين الله، مثله كمثل الذين لم يدخلوا في الإسلام»!.

وكذلك يدعي زعيمهم المسمى: (بهاء الله)، ففي كتاب «بهاء الله والعصر الجديد»: «وقرر بهاء الله أن رسالته هي لتأسيس السلام على الأرض». وقال صاحب هذا الكتاب يتحدث عن البَاب والبهاء: «من المستحيل إيجاد أي تغيير لعظمهما إلا بالاعتراف بأنهما إنما عملا بوحي من الله».

يدّعي الباب الرسالة، ويزعم أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، فابتدع لأتباعه أحكاماً خالف بها أحكام الإسلام وقواعده، فجعل الصوم تسعة عشر يوماً من شروق الشمس إلى غروبها. وعين لهذه الأيام وقت الاعتدال الربيعي؛ بحيث يكون عيد الفطر عندهم يوم النيروز على الدوام، وفي كتابه «البيان»: «أيام معدودات، وقد جعلنا النيروز عيداً لكم بعد إكمالها». وجعل ميرزا حسين الملقب ببهاء الله الصلاة تسع ركعات في اليوم والليلة، وكان عبدالله بن الخراب الكندي الذي اعتقد إلهيته كثير من أشباه الناس قد جعلها تسع عشرة صلاة في اليوم والليلة.

وقبلة البهائيين في صلاتهم التوجه أين يكون ميرزا حسين المسمى: بهاء الله، فإنه يقول لهم: «إذا أردتم الصلاة، فولوا وجوهكم شطري الأقدس»! وقال ابنه عباس: «يلزمنا التوجه إلى مركز معلوم، وهو مظهر الله». ومظهر الله في زعمهم هو هذا المسمى: بهاء الله.

أما الحج، فقد أبطله البهاء، وأوصى بهدم بيت الله الحرام عند ظهور رجل مقتدر من أشياعه.

ومن الباطنية من منع العوام من مدارسة العلوم، والخواص من النظر في الكتب المتقدمة؛ حتى يبقوا في عماية، وهو الحسن بن محمد الصباح. ونجد ميرزا علي المسمى: الباب قد حرّم في كتابه «البيان» التعلم، وقراءة كتب غير كتبه، فكان كل من يؤمن بالباب يحرق القرآن الكريم وما وقع في يده من كتب العلم، ولكن الميرزا حسين المسمّى: (بهاء الله) أدرك ما في هذا التحجير من خطأ مكشوف، وأنه مما يصرف عنهم ذوي العقول النابهة، فأتى في كتابه الذي سمّاه: «الأقدس» بما ينسخه، فقال: «قد عفا الله عنكم ما نزل في «البيان» من محو الكتب، وأذنّاكم بأن تقرؤوا من العلوم ما ينفعكم».

وفي الباطنية من يدعي حلول الإله في بعض الأشخاص، كما قال القرامطة بإلهية محمد بن إسماعيل بن جعفر، وهذه الدعوى ـ أعني: دعوى الحلول ـ تظهر في بعض مقالات البهائية.

قال عباس الملقب بـ (عبد البهاء): «وقد أخبرنا بهاء الله بأن مجيء رب الجنود، والأب الأزلي، ومخلص العالم الذي لا بد منه في آخر الزمان، كما أنذر جميع الأنبياء، عبارة عن تجليه في الهيكل البشري، كما تجلى في هيكل عيسى الناصري، إلا أن تجليه في هذه المرة أتم وأكمل وأبهى، فعيسى وغيره من الأنبياء هيؤوا الأفئدة والقلوب لاستعداد هذا التجلي الأعظم».

يريد بهذا: أن الله تجلى فيه بأعظم من تجليه في أجسام الأنبياء على ما يزعم، وقال مهذارهم أبو الفضل الإيراني: «فكل ما توصف به ذات الله، ويضاف ويستند إلى الله من العزة والعظمة، والقدرة والعلم والحكمة، والإرادة والمشيئة، وغيرها من الأوصاف والنعوت، إنما يرجع بالحقيقة إلى مظاهر

أمره، ومطالع نوره، ومهابط وحيه، ومواقع ظهوره».

ويظهر هذا من اللوح الذي كتبه المسمى (بهاء الله) في التنويه بشأن ابنه عباس؛ فإنه قال: «إن لسان القدم[1] يبشر أهل العالم بظهور الاسم الأعظم[2] الذي أخذ عهده بين الأمم، أنه نفسي، ومطلع ذاتي، ومشرق أمري، من توجه إليه، فقد توجه إلى وجهي، واستضاء من أنوار جمالي، واعترف بوحدانيتي، وأقر بفردانيتي... إلخ)!.

وقلد البهائية الفلاسفة فيما يدعونه من قدم العالم، ففي كتاب «بهاء الله والعصر الجديد»: «علم بهاء الله أن الكون بلا مبدأ زمني، فهو صادر أبدي من العلة الأولى، وكان الخلق دائماً مع خالقه، وهو دائماً معهم».

وقد تصدى أهل العلم الراسخ لتزييف ما تعلق به هؤلاء في الاستدلال على هذا الرأي، وحققوا أن المعلول لا بد أن يتأخر عن العلة في الوجود؛ إذ معنى العلة: ما أفاض على الشيء الوجود، والمعلول: ما قبل منه هذا الوجود، ولا معنى لإفاضة الوجود على الممكن إلا إخراجه إلى الوجود بعد أن كان في عدم، وذلك معنى الحدوث.

ومن عجيب أمر هذه الطائفة: أنهم يدعون النبوة والرسالة، وما فوق الرسالة، وينكرون المعجزات بدعوى أنها غير معقولة، تجدون هذا الإنكار في كتاب داعيتهم المسمّى: أبا الفضل، فقد ذكر انفلاق البحر، وانفجار العيون من الحجر لموسى ـ عليه السلام ـ، وإبراء عيسى ـ عليه السلام ـ للأكمه والأبرص، وإحياءه الموتى بإذن الله، ونبع الماء من بين أصابع

---

(١) يفسره البهائية ببهاء الله.

(٢) يفسرونه بعباس عبد البهاء.

محمد ﷺ، وقال: وكثير من أهل الفضل، وفرسان مضمار العلم اعتقدوا بأن جميع ما ورد في الكتب والأخبار من هذا القبيل كلها استعارات عن الأمور المعقولة، والحقائق الممكنة مما يجوزه العقل المستقيم، ثم أخذ يؤول ما ورد في تلك المعجزات من قرآن وحديث، ويحمله على معان لا يقبلها منه إلا من فقد عقله قبل أن يفقد إيمانه، وإنكارهم للمعجزات ينبئكم أن القوم يمشون مكبين على وجوههم وراء الفلسفة التي لا تؤمن بأن لهذا العالم خالقاً فعالاً لما يريد.

وملخص القول في البابية والبهائية: أنه مذهب مصنوع من ديانات ونحل وآراء فلسفية، قال صاحب كتاب «مفتاح باب الأبواب» يصف البابيين: «لهم دين خاص مزيج من أخلاط الديانات البوذية[1]، والبرهمية الوثنية[2]، والزرادشتية[3]، واليهودية، والمسيحية، والإسلامية، ومن اعتقادات الصوفية، والباطنية».

وما زالت البهائية مذهباً قائماً على أطلال الباطنية يحمل في سريرته القصد إلى هدم الإسلام بمعول التأويل، ودعوى الرسالة والوحي بشريعة ناسخة لأحكامه، حتى جاء عباس عبد البهاء إلى هذا المذهب المصنوع، وأراد أن يكسوه ثوباً جديداً، فخلطه بآراء التقطها مما يتحدث به بعض الناس على أنها من مقتضيات المدنية، أو مما اكتشفه العلم حديثاً، نحو:

---

(١) دين الصينيين واليابانيين.

(٢) أصل ديانة الهنود.

(٣) ديانة قديمة تنسب إلى إبراهيم زرداشت الإيراني، ولا يزال لأتباعها طائفة بالبلاد الهندية، وأخرى بالبلاد الإيرانية.

التساوي بين الرجال والنساء في التعليم، ونزع السلاح، واتفاق الأمم على لغة واحدة تدرس في العالم كله، وتأسيس محكمة عمومية تحل مشاكل الأمم، وأن الإنسان تدرج بالارتقاء من أبسط الأنواع حتى وصل إلى شكله الحالي (نظرية داروين)، ولهجوا بعد هذا بكلمة نشر السلام العام، ونبذ التعصبات الدينية.

وقد تخيل عباس أنه بإدخال مثل هذه الآراء في مذهب البهائية يستدرج المولعين بالجديد من النابتة الحديثة، ولهذا الطمع ترونه يقول: «تحتوي تعاليم بهاء الله على جميع آمال ورغائب فرق العالم، سواء كانت دينية أو سياسية أو أخلاقية، وسواء كانت من الفرق القديمة أو الحديثة، فالجميع يجدون فيها ديناً عمومياً في غاية الموافقة للعصر الحاضر[1]، وأعظم سياسة للعالم الإنساني».

وصرح في مقال آخر بأنه يريد أن يوحد بين المسلمين والنصارى واليهود، ويجمعهم على أصول نواميس موسى ـ عليه السلام ـ الذين يؤمنون به جميعاً[2].

ولا أحسب عبد البهاء عباساً يقصد من هذا الحديث إلا التزلف لليهود، والتظاهر بموالاتهم؛ ليجعلهم من أشياعه، وإلا، فكيف يقع في خاطر من عرف القرآن أن يعمل على صرف الناس عن شريعة الإسلام، ويرجع بها إلى شفا حفرة من النار بعد أن أنقذهم الله منها؟!.

يذكر الشيخ ابن تيمية: أن الباطنية «هم دائماً مع كل عدو للمسلمين»، وقال: «إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام، وقتلوا خليفة بغداد وغيره من

---

(١) كتاب «عبد البهاء والبهائية» (ص٨٧).

(٢) كتاب «عبد البهاء والبهائية» (ص٩٣).

ملوك الإسلام إلا بمعاونتهم».

وكذا نجد في البابية تحيزاً إلى أعداء المسلمين، وانظروا إلى عباس عبد البهاء كيف يتحيز إلى اليهود، ويبشر بأن فلسطين ستصير وطناً لهم. فقال: «سيجتمع بنو إسرائيل في الأرض المقدسة، وتكون أمة اليهود التي تفرقت في الشرق والغرب والجنوب والشمال مجتمعة».

وقال: «تأتي طوائف اليهود إلى الأرض المقدسة، ويزدادون تدريجاً إلى أن تصير جميعاً وطناً لهم».

فالبهائية شأنهم شأن الباطنية في بغض الإسلام، وموالاة خصومه، ولنا الأمل الوثيق في أن العرب وسائر المسلمين من ورائهم سيقفون في وجه الاستعمار الصهيوني، والدعاية البهائية التي تظاهرها وتسعدها، حتى تبقى فلسطين وطناً عربياً إسلامياً، على الرغم من عبد البهاء والبهائيين.

س ـ هل يعتقدون في الحشر والجنة والنار؟.

ج ـ لا يؤمن البهائيون بالبعث، ولا بالجنة والنار، ويفسرون يوم الجزاء ويوم القيامة بمجيء ميرزا حسين الملقب ببهاء الله، قال في كتاب «بهاء الله والعصر الجديد»:

«وطبقاً للتفاسير البهائية يكون مجيء كل مظهر إلهي عبارة عن يوم الجزاء، إلا أن مجيء المظهر الأعظم بهاء الله هو يوم الجزاء الأعظم للدورة الدنيوية التي نعيش فيها». وقال: «ليس يوم القيامة أحد الأيام العادية، بل هو يوم يبتدئ بظهور المظهر، ويبقى ببقاء الدورة العالمية».

هذا ما يفسرون به يوم الجزاء ويوم القيامة، ويفسرون الجنة بالحياة الروحانية، والنار بالموت الروحاني، قال في هذا الكتاب: «إن الجنة والنار

في الكتب المقدسة حقائق مرموزة»، فعندهما ـ أي: البهاء وابنه عباس ـ الجنة هي حالة الكمال، والنار حالة النقص، فالجنة هي الحياة الروحانية، والنار هو الموت الروحاني.

هذا ما يقوله البهائية، وكذلك ينقل لنا أبو حامد الغزالي أن الباطنية يقولون: «كل ما ورد من الظواهر في التكاليف والحشر والأمور الإلهية، فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن». وساق بعد هذا أمثلة في تأويلهم الفاسق عن قانون اللغة والعقل، وقال: «هذا من هذيانهم في التأويلات، حكيناها ليضحك منها، ونعوذ بالله من صرعة العاقل، وكبوة الجاهل»!.

وقد قلدوا في إنكار البعث طائفة الدهريين، وأخذتهم شبههم التي لا تستطيع أن تنهض أمام أدلة القرآن الحكيم، قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩].

س ـ هل يعتقد البهائيون بنبوة سيدنا محمد ﷺ؟.

ج ـ مخالفة البهائيين لما جاء به رسول الله ﷺ من معتقدات وأحكام، وتهجمهم على تأويل القرآن والحديث بمثل ما نقلناه عن زعمائهم؛ شاهد على أن قلوبهم جاحدة لرسالته، وإذا تحدثوا عنه في بعض كتبهم متظاهرين بتصديق نبوته، فما هم إلا كسائر الأفراد أو الطوائف الذين يعملون لهدم الإسلام تحت ستار.

ومن خبال زعيمهم الأول: دعواه في تفسيره لسورة يوسف أنه أفضل من رسول الله ﷺ، وعلل هذا الكلام بما لا يفهمه إلا من يفهم لغة المبرسمين

إذ قال: «لأن مقامه (الباب) هو مقام النقطة، ومقام النبي ﷺ مقام الألف».
وقال: «كما أن محمداً أفضل من عيسى، فكتابه «البيان» أفضل من القرآن».
وقال: «إن أمر الله في حقي أعجب من أمر محمد رسول الله من قبل لو أنتم فيه تتفكرون»!!.

ولسنا في حاجة إلى الرد عليه في دعوى أنه أفضل من رسول الله ﷺ، ولا في دعوى أن كتابه «البيان» أفضل من القرآن، فعامة المسلمين كخاصتهم يعلمون أن هذه الدعوى من صنف الدعاوي التي تنادي على نفسها بالزور والهذيان، وأولو العقول من غير المسلمين يعرفون عظمة محمد بن عبدالله ﷺ، وما بثه في العالم من إصلاح، فمن يدّعي أنه مثل محمد، أو أنه أتى بكتاب يحاكي القرآن، كان في حاجة إلى علاج يعيد عليه شيئاً من رشده، ويجعله على بصيرة من نفسه.

س ـ إذا كانوا يعترفون بنبوة سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فكيف يعتقدون بنبي بعده، ودين غير دينه؟.

ج ـ البهائيون لا يعترفون بنبوة سيدنا محمد ﷺ، ولهذا سهل على زعمائهم أن يدعوا النبوة من بعده! قال تعالى:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومعنى الآية الذي لا يذهب الفهم إلى خلافه: أنه النبي الذي انقطع به وصف النبوة، فلا يتحقق في أحد من الخليقة بعده.

وورد هذا مبيناً في صريح السنّة الصحيحة، ففي «صحيح الإمام البخاري»، «وصحيح مسلم»: أن النبي ﷺ قال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى داراً بناء، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية،

فجعل الناس يطوفون به، ويتعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

وقد انعقد إجماع المسلمين على هذا جيلاً بعد جيل، وأصبح معلوماً من الدين بالضرورة، فمن أنكره، وادعى لنفسه أو لغيره النبوة بعد رسول الله ﷺ، فقد انسلخ من الإسلام، وكان من الغاوين، وإذا شهد لسانه بنبوة محمد ﷺ، فهو من أولئك الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فالبابيون لا يدخلون في المعترفين بنبوة رسول الله ﷺ في حال.

وقد ذكرهم العلامة الألوسي في تفسير قوله تعالى:

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠].

فقال: «وقد ظهر في هذ العصر عصابة من غلاة الشيعة لقبوا أنفسهم بالبابية لهم في هذا الباب فصول يحكم بكفر معتقدها كلُّ من انتظم في سلك ذوي العقول، وقد كاد عرقهم يتمكن في العراق لولا همة واليه النجيب الذي وقع على همته وديانته الاتفاق حيث خذلهم ـ نصره الله تعالى ـ، وشتت شملهم، وغضب عليهم رضي الله عنه، وأفسد عملهم، فجزاه الله تعالى عن الإسلام خيراً، ودفع عنه في الدارين ضيماً وضيراً».

س ـ ما هو الواجب عمله لإحباط مساعيهم حتى لا يقع أحد في شراكهم؟.

ج ـ لو كان التعليم الديني في الشعوب الإسلامية إلزامياً ومقرراً في جميع مدارسها، لم يجد أشباه الباطنية إلى إزاغة قلب الفتى المسلم طريقاً، وتركُ كثيرٍ من أبنائنا لا يعرفون من الإسلام إلا أسماء، أو لا يلقنون إلا مبادئ مقطوعة عن حججها العقلية أو النقلية، قد يسر لأمثال البهائية أن ينصبوا

حبائلهم بين المسلمين، ويصطادوا من النفوس الجاهلة قليلاً أو كثيراً.

ولا ننسى أن الذي ساعد البهائية على أن تستهوي فريقاً من المسلمين: تظاهرها بأنها فرقة إسلامية، واحتجابها بالقرآن والحديث، وكتمها بعض معتقداتها المنكرة على البداهة، وعدم انتشار كتبها، فكثير من أهل العلم لم تصل إليهم كتب هذه الطائفة حتى يستبينوا منها حقيقة نحلتهم، ويحذروا الناس من الوقوع في شراكهم.

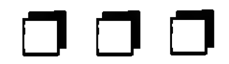
أما اليوم، فقد أخذهم الغرور، وصاروا يذيعون شيئاً من أسرار نحلتهم على المنابر وعلى صفحات الجرائـد، ويتحدثون عنها في مؤلفات تطبـع وتعرض على الناس في المكاتب، فهي بما تحمله من مقالات ملفقة ودعاوي غير معقولة قد بحثت عن حتفها بظلفها، فلا نخشـى على من له نباهة أو فطرة سليمة أن يعتقد بنبوة ميرزا حسـين، أو عباس عبد البهاء، ولا نخشى على من وصل إلى نفسه أثر من هداية الإسـلام أن يتبدل بها مزاعم أبي الفضل الإيراني، وإذا جاز أن يكون في طبقة العامة أو أشباههم من لا يتنبه لما في البهائية من كيد للإسلام، وإغواء عن شـريعته الغراء، فإن العلماء والوعاظ ـ أينما كانوا ـ سيكشفون للناس عن بطانة هذا المذهب؛ ليحترسوا من دعاته، ويحذروا أن يمسهم شيء من نزعاته.

وقد علم طائفة من دعاة الإباحية والخروج على الدين ما ينطوي عليه هذا المذهب من مناوأة للدين الحق، فقاموا يظاهرونه في النوادي والصحف، ويزينونه في أعين الناس؛ ظناً منهم أن علماء الإسلام ما زالوا عن سريرة هذا المذهب غافلين.

❑ ❑ ❑

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة



الفهرس العام للموسوعة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الكتاب الثاني
الحكومة والإسلام

الموضوع	الصفحة

الكتاب الثالث
الخلافة والحكومة في التاريخ

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

جبهة الدفاع
عن
إفريقيا الشمالية

* * *

القاديانية والبهائية

الموضوع	الصفحة

